الغابة السوداء

ألجرنون بلاكوود

ترجمة: بسمة الخولي

ترجمات

دارك

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الغابة السوداء

رواية مترجمة..

ألجرنون بلاكوود
ترجمة: بسمة الخولي

عن الرواية..

هنا حولها وأسفل قدميها، كانت الغابة حية؛ هنا -أدركت للمرة الأولى- كم كانت ضئيلة داخل كونٍ كاملٍ يحوي كياناتٍ لم تعهدها، أقدم من البشر، بقِدم الحياة ذاتها. والآن وقد حل الشتاء، علمت أن العَدُّ التنازلي قد بدأ، وقريبًا سينهض من بين الأشجار، سيسقط عنه لباس التحضر، وسيعوي كالمردة متجهًا إلى منزلها، ليحصد الحياة التي انتظرها طويلًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

“الجسد البشري ليس بالضرورة، الوعاء الوحيد للروح.”

ألجرنون بلاكوود

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

كان يرسم كما لو أن روحًا من زمان آخر، من عالم آخر قد تلبسته؛ كما لو كانت أصابعه حول الفرشاة لا تنتمي لباقي جسده. لكنه عكف على رسم الأشجار، والأشجار فقط. كل ورقة بكل فرع كان لها شكلها الخاص اسفل شعيرات فرشاته، كل خط بالجذع، ثقب باللحاء. لم تكن أشجاره على قماش اللوحات حقيقية فقط، بل كانت مختلفة تمام الاختلاف عن بعضها البعض، لكل منها شخصية مستقله، روحًا، ووجود.

ساندرسون كان يعرف ما يفعله ويفعله بإتقان، وبحب عارم. لم يتلق في حياته درس للرسم، لم يكن من أولئك الأشخاص المداومين على حضور المعارض أو الاختلاط بالفنانين الآخرين في المجتمع حوله، كان يعرف أشجاره، تفاصيلها وروحها لكنه لم يكن يعرف أيَّ شيءٍ آخر.

لطالما حاول ساندرسون التوسع في مجال رسمه، لكن كل شيء آخر عدا الأشجار جاء باهتًا، مشوهًا حتى يكاد يكون طفوليًا. الزهور والمشاهد الطبيعية من ماء وسماء ظهرت كعجين من الألوان بلا رأس أو ذيل، لم يكن للبيوت شكل أو معنى ولا للجسور أو العربات أو حتى السحب. ثم هناك الأشخاص، البشر. أولئك كان ساندرسون عاجزًا تمامَ العجز عن الاقتراب حتى من شكل ملامحهم أو تفاصيل أجسادهم.

فجاءوا كالظلال، مجرد ضربات بالفرشاة على اللوحة.

لم يكن ساندرسون يرى سوى الأشجار والأشجار فقط، وبعد أن عرف الناس هذا عنه حتى كفوا عن طلب صور شخصية لهم واكتفوا بطلب لوحة لشجرتهم المفضلة، السرو الذي أحبوه أكثر من سواه، الزيزفون الذي حمل ذكرى مميزة أو قبلة أولى تحت أوراقه الوفيرة. وفي هذا كان ساندرسون بارعًا، بارعًا حتى النخاع.

" بلى، حين يتعلق الأمر بالأشجار، يعرف ساندرسون ما يفعله".. هكذا فكَّر ديفيد باتسي وهو يحدِّق باللوحة الضخمة أعلى مكتبه راضيًا، شاعرًا بأن العشرين جنيهًا التي صرفها كانت – على عكس ما قالته زوجته – ثمنًا بخسًا في مقابل لوحة لا نظير لها كهذه التي اشتراها. داخل الإطار تطلع ديفيد إلى شجرة الأرز، شجرته، الشجرة التي طلب رسمها بالذات. تابع تفاصيل الورق والأفرع بشغف، فكر أن بوسعه إن اقترب قليلًا رؤية الغصون تتمايل بفعل النسيم، كان بإمكانه سماع حفيف الأوراق وشم رائحة الندى العالق بينها، الطين أسفل الجذع، المشبع بالماء. كان بإمكانه رؤية الخطوط الصغيرة في

اللحاء الخارجي، ورؤية قرون الاستشعار للنمل الدقيق الذي يجوبها باحثًا عن مأوى أو طعام. بإمكانه الشعور بالشجرة تكبر وتتمدد داخل اللوحة.

لا، لم يضع العشرين جنيهًا في لوحة لا قيمة لها، لم يصرف المال هباءً كما ظنت زوجته. تلك اللوحة أمامه استحقت كلَّ قرشٍ وكلَّ لحظة انتظار.

تنهد ديفيد وهو يجول بيعينه هائمًا في لوحته، عقله كان مضطربًا رغم سعادته، مضطربًا إلى حد الاكتئاب. كان جنتلمان أوروبي؛ لذا لم يتوقع منه أحد أن يحب الطبيعة، لم يكن هذا اعتياديًّا في المجتمع المحيط به، ربما المال، العربات، السيجار أو الأخبار الجديدة لكن ليس الطبيعة، وبالتأكيد ليست الأشجار على قائمة الهوايات لأمثاله من رجال أوروبا المحترمين. داخله كان يعرف أن أصوله الأسيوية لها علاقة بشدة حبه للأشجار، تلك السنوات الأولى من حياته التي قضاها في الشرق، يعتني بالأشجار، يقلمها، يراقبها ويحدثها، اعتاد اتخاذ الغابات صديقًا وقلَّمَا كان يتعامل مع آخرين في سنِّه، اكتفى بالأشجار مؤنسًا لوحشته واكتفى بالبقاء بينها، ليس للأشجار طبع الخيانة، ليست لهم دوافع خفية ولا رغبة في الاستغلال، بل العكس؛ لذا وجد سعادته وربما دق قلبه للمرة الأولى أيضًا بسبب الأشجار، صار يألفها ويعرفها ويشعر بالراحة بين غصونها وقرب جذوعها الضاربة في الأرض.

حاول كثيرًا إخفاء شغفه بالأشجار عن كل مَن يعرف، عن المجتمع في أوروبا بالكامل، وأصدقاؤه من الولايات أيضًا، وإلى حدٍّ كبيرٍ عن زوجته نفسها. إلا أنها كانت تعرف، تعرف ذلك الولع الغريب، في البداية لم يشكل هذا لها مشكلة حقيقية، كونها امرأة فقد انجذبت للطبيعة والجمال تلقائيًا. لكن زيارتهما للهند هي ما حول شغفها هي الأخرى بالطبيعة إلى الخوف والتوجس، كان دايفيد غريب الأطوار حين أقاموا قُربَ غابة صغيرة هناك، يخرج بالصباح ليهيم على وجهه بين الأشجار حتى يختفي تمامًا عن نظرها، تظل في انتظاره بالبيت حتى يُعييها القلق، ويبدأ عقلها برسم كافة الحوادث التي يمكن أن تكون قد وقعت لزوجها هناك داخل الغابة، لكنه ما ينفك يعود، سعيدًا وهادئًا، شاردًا ربما لكنه بخيرٍ.

أصبحَتْ زوجته تخشى عليه من الأشجار ومن شغفه بها، حاولت ألا تصرِّح بذلك علانية لكنه كان يعرف كلَّما فتح موضوعًا متعلقًا بالأشجار، تلك النظرة بعينيها إليه كلما بدأ بالكلام عن شغفه، لم تكن نظرة ملل أو ضيق بل كانت نظرة رعب.

السيدة باتسي كانت ابنةً لرجل دينٍ، سيد إنجيلي محترم شديد الورع والتقوى؛ لذا كانت تجد سعادتها في مشاركة زوجها أفراحه وأحزانه، في العمل من أجل استقرار بيتها، كانت طيعة إلى الحد الذي طغى على

شخصيتها الخاصة أحيانًا، ليست كثيرة الاعتراض، لم تكن تشارك في الجدال أيًّا كان موضوعه، كانت هانئة طالما زوجها هانئ وسعيد. وكانت راضية طالما تقوم بواجبها تمامًا كما يقول الكتاب المقدس بلا تقصير.

لكن شيئًا واحدًا ظلَّ يقف في طريق التفاهم الكامل بينها وبين زوجها، شيء واحد كان يعكر صفاءها وهو أمر الأشجار تلك وهوس زوجها بهم؛ ظلَّ هذا الموضوع بالذات كحائط خفي بينهما، حاولت – ويشهد الرب أنها حاولت – أن تتغلب على قلقها ومقتها لتعلق زوجها بالأشجار، كي تصبح زوجة مسيحية مثالية، لكنها لم تتمكن من التغلب على مشاعرها الخاصة، ليس هذه المرة. زوجها بالطبع لم يوبخها أو يجبرها على حب الأشجار مثله، كان دايفيد محترمًا ووقورًا لكنها لم تكن راضية عن نفسها.

تململ دايفيد في وقفته قليلًا، وهي تقف خلفه، لم يلتفت لينظر لها لكنه كان يعلم بينما هي الأخرى تحدق في اللوحة أعلى مكتبه بأن مقتها لم يكن – كما قالت هي– بسبب المبلغ الباهظ الذي دفعه لقاء اللوحة، بل؛ لأن شجرة الأرز المرسومة داخل الإطار الخشبي أمامها لم تنشر فروعها على القماش فقط، بل امتدت الفروع أكبر، خارج الإطار، إلى تلك الفجوة بينها وبين زوجها لتزيد اتساعها، لتحجبها أكثر وأكثر عن الحياة المثالية التي رغبت فيها.

لم تتعرف السيدة باتسي على ساندرسون بصورة شخصية، بالنسبة لها كان الرجل شخصية غامضة تبيع لوحات عن الأشجار لمشترين غريبي الأطوار – مثل زوجها – لا أكثر مقابل الكثير من المال، أكثر مما تستحق اللوحات. لم يكن لديها فكرة بالطبع وقتها أن ساندرسون لم يكن يرسم من أجل المال على الإطلاق، وأن موضوعاته الغريبة عن الأشجار والأشجار فقط لم تلقَ رواجًا بين الأوساط الأرستقراطية القادرة على دفع المال مقابل لوحات مرسومة. كان زبائنه قلائل والشيكات التي تأتيه أو الأموال التي تُدفع نقدًا كانت قليلة، وعلى فترات متباعدة جدًّا، أحيانًا من محبي اقتناء لوحات شديدة الجودة عن الأشجار والطبيعة، أحيانًا من رجال أو نساء راغبين في رسم شجرتهم المفضلة؛ لأنها تحمل ذكرى مهمة، أو بعض الفضوليين الذين يملكون فائضًا من المال لصرفه. لكن عدا عن ذلك لم يكن لساندرسونزبائن. وهو لم يكن يبحث أصلًا عن زبائن. اكتفى بأولئك القادمين من أجل لوحات مميزة، امتنع عن بيع لوحاته الغريبة التي كان يرسمها من فترة إلى أخرى من أجل متعته الخاصة، أبقى تلك اللوحات لنفسه مهما عُرض عليه في مقابلها.

لم يبحث الرجل عن المال لكنه كان شديد الحساسية تجاه السخرية منه أو من لوحاته أو من اختياره لرسم الأشجار عدا سواها، كانت السخرية أو التهكم منه أو منهم هي الشيء الوحيد الذي قد يدفعه للغضب وربما رمي الساخر خارج عتبه بيته ورفض مقابلته مرة أخرى.

“مبهر ما تستطيع فعله بلوحاتك سيد ساندرسون. “قالتها امرأة له يومًا في أحد التجمعات”، قدرتك على جعل شجرة سرو واحدة مختلفة عن جميع الأشجار الأخرى، على الرغم من أن كافة الشجر متشابهة، حتى يكاد يكون متطابق!.” رغم أن السيدة قصدت المدح بجملتها هذه، إلا أن وجه الرسام المحب للأشجار انقبض فورًا، احمرت أذناه وانعقد حاجبيه ثم التفت لها رادًا بنبرة باردة:

- شيء مبهر وغريب فعلًا سيدتي.

نظر للوحته المعلقة ثم تابع:

- يكاد يكون بنفس غرابة اختيارك لزوجك، رغم أن جميع الرجال متشابهين حد التطابق.

كان يعرف أنها زوجة لرجل ثري، الرجل كان يتعامل معه شخصيًّا وعرفانها تزوجته من أجل ماله بالذات؛ لذا وفي تلك اللحظة حين احمرت وجنتاها ونظرت له شذرًا ثم التفتت لترحل، عرف أن ملحوظته قد قطعت علاقته بتلك العائلة للأبد. لم يهتم كثيرًا، لأنه لم يتحمل الإهانة كثيرًا.

كان يعرف أن عصبيته منتقدة، وكثيرون نصحوه بتقبل الرأي الآخر، لكنه أخبرهم بتلقائية وبدون تجميل للحقائق أن الأشجار هوايته، حبه، شغف يرويه بلوحاته. وأن كما أن عليه احترام شغف الآخرين عليهم احترامه، بعض الرجال يعشقون الموسيقى، أو الدين، أو ربما النساء. هو يعشق الأشجار. وليس لأن ذلك شغفًا مختلفًا عليهم توقع أن يتحمل أي استهزاء به.

- أنا مدركة لعدم أحقيتي في الاعتراض عزيزي.

قالتها السيدة باتسي وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها في حركة دفاع غريزية عن نفسها، ضد لا شيء محدد رغم أن عينيها ظلتا تتابعان الأوراق والبراعم في اللوحة:

- لأنك شديد السعادة والفخر بتلك اللوحة، لا يحق لي الاعتراض. لكن الثمن الذي دفعته، الآن بالذات رغم حاجتنا إلى المال. الثمن الذي دفعته مقابل لوحة لشجرة أرز.

قاطعها ديفيد دون النظر لوجهها:

- لأنها تذكرني بيوم مهم من حياتي يا صوفيا.

ثم التفت ليرمقها بفخرٍ قبل أن يعود ليحدق باللوحة:

- بأحد الأيام الربيعية الرائعة في شرق إنجلترا، بهمس الطيور السابحة في السماء الزرقاء لبعضها البعض بينما ينشر النسيم العابر عطر النرجس والليليك، وشابة يافعة ذات جمال يخطف الأنفاس تنتظر أسفل شجرة الأرز في ثوب قطني أبيض طويل مطعم بالدانتيل والحرير.

- لم أكن أنتظر..

قاطعته صوفيا ووجنتاها تتوردان:

- كنت أجمع أقماع الصنوبر لإشعال النار بالمدفأة..

- أقماع الصنوبر لا تنمو على أشجار الأرز حبيبتي، وفي أيام صبانا لم تكن هناك حاجة لإشعال النار وسط الربيع في شهر يونيو.

- وعلى أي حال ليست هذه ذات الشجرة..

قاطعت مرة أخرى ووجهها شديد الاحمرار فابتسم ديفيد ليعقب على كلماتها:

- تلك الشجرة بنهار الربيع وذلك اليوم جعلني أقع مغرمًا بكافة أشجار الأرز.. من أجل تلك الشجرة، ولأنها تذكرني بأنك مازلتِ تلك الفتاة الشابة الحالمة في الفستان الأبيض التي قابلتها يومها.

انتظرت صوفيا ريثما تهدأ ضربات قلبها ثم تحركت لتقف جوار زوجها، محركة نظرها من الشجرة باللوحة إلى الشجرة الوحيدة القابعة في الأسفل بفروع ضخمة، بجذع قوي يفصلها عما سواها. رمادي كالشيخوخة، مائل كرأس طفل فضُوليٍّ، كانت كمثيلتها في اللوحة، ضخمة وقديمة ووحيدة أمام بيتهما في هامبشاير.

- لست مستاءة من المبلغ ديفيد، ليس كما تتوقع. لكنني فقط أرى أن اللوحة كانت لتستحقه فعلًا لو كانت لذات شجرة الأرز التي التقينا تحت فروعها. الشجرة الأصلية.

قالتها صوفيا وهي تنظر لزوجها الذي أجاب فورًا:

- لم تعد الشجرة الأصلية موجودة صوفيا، اقتلعوها منذ سنوات مضت – مررت من المكان ذاته العام الماضي ولم أرَها– كل شيء بالمكان الأصلي تغيَّر.. كل شيء.

لم تعقب صوفيا بل اقتربت من اللوحة، ووقفت هناك دون حركة لثوانٍ ثم لمست الإطار بحذر وكأنها تتوقع أن يتم ابتلاعها إلى الداخل في أي لحظة، أزاحت إصبعها ثم أمسكت بمنديلها الحريري وبدأت تحركه بنعومة على الإطار بالكامل وكأنها تحاول إزالة أيِّ ذرة تراب عالقة هناك، حول الإطار كله

حتى إنها اضطرت إلى الوقوف على أطراف أصابعها أحيانًا. راقبها ديفيد لثوانٍ ثم تابع بصوته الحالم نفسه:

- غريبٌ أمري، تعلقت بتلك الشجرة القديمة وكأنها صديق قريب لقلبي وحزنت حين قطعوها وكأنني فقدت فردًا من عائلتي حتى إنني ارتديت لباس العزاء لأيام. لم أكن على معرفة جيدة بتلك الشجرة القديمة، كلما فكرت في الأمر، لم أكن أعرف عنها شيئًا، لا قصتها ولا روحها، ولا ما رأته فروعها. كنت شابًا واقعًا في الحب حين رأيتُها، ظننت أن الحب جعلني أقع في غرام الشجرة كما في غرام الفاتنة المنتظرة أسفل منها، الحب يجعلنا قادرين على رؤية الحياة في كل ما لم ندرك أنه حي قبلًا.

تنفس بعمقٍ ثم تابع:

- لكنَّ شجرة الأرز بالأسفل، في الباحة. لم أدرك كم هي قريبة إلى قلبي إلا حين راقبت الجنتلمان الودود يرسمها، فجأة وجدتني أنظر إليها عبر عيني ساندرسون. كيف نقل محبتها، كيف نقل قوتها وصبرها من الشجرة الحقيقية إلى فرشاته ثم إلى قماش اللوحة. رأيت الحقيقة عبر عينيه، وكم أود أن أسأله كيف، كيف رآها بهذا الوضوح!

ترك ديفيد زوجته ليقترب من زجاج النافذة هائم النظرات إلى الأسفل، إلى شجرة الأرز القديمة في الباحة:

- كيف رأى محبتها لنا وهي تقف هناك، كحائل وحيدٍ بيننا كبشر، وبين الغابة الشاسعة على الجهة الأخرى من البيت. هناك. ورغم أن تلك الأرض وتلك الغابة من المفترض أن تكون وطنها إلا أنها تنتمي بروحها لنا، لنا نحن يا صوفيا أكثر من أي شيء آخر. كجد عجوز يقف أيامه الباقية حارسًا أمام باب الكوخ الذي يحمل في باطنه أحباءه. مهددًا لكل من يحاول الاقتراب، ومهدِّدًا لأهل الكوخ.

صمت ديفيد تمامًا وهو سارح في الظلام خارج النافذة، كيف كان بيته وحديقته الصغيرة ذات الأزهار الملونة مماثلين لفراشة وقحة ترفرف حول رأس عملاق غاضب؛ أحاطت الغابة ببيته وبحديقته وبكل شيء رآه، ضخمة وواسعة وممتدة يصل عمر أشجارها إلى آلاف السنين. ضاربة في الأرض بقوة وضخمة حتى تكاد تنبثق إلى السماء.

الغابة كانت في انتظار ابتلاعه، دائمًا تراقبه في انتظار ابتلاعه، وهو مع حديقته وبيته ذو الأضواء الصناعية كان صغيرًا جدًّا وتافهًا، كحشره في الهواء أعلى النهر، يكفي ارتفاع موجه مد واحدة لتختفي دون عودة تحت الماء. في أيام الشتاء الباردة حين يهبط ستار رمادي وأرجواني على العالم حوله، كانت

الرياح تأتي حاملة عطر الغابة البري. ليضرب ثقته بقوة، يتحداه، ويذكّره بأن حياته كلها كانت على بُعدِ أمتار قليلة من فم الطبيعة المفتوح المستعد لابتلاعه. أَحَبَّ ديفيد الشعور بهذا التحدي الذي تواجهه به الغابة في صحوه ونومه.

- غريب، غريب أنني للمرة الأولى أشعر بكل حياة داخل الغابة بهذه الطريقة، شعرت بها للمرة الأولى في الهند، في كندا، لكن هنا في إنجلترا. لم أشعر بها قبلًا إلا هنا، أمام الغابة هنا.

قالها ديفيد دون النظر لزوجته ودون انتظار ردها تابعَ:

- الأغرب أن أعثر على من يشعر بالشيء ذاته مثلي، ساندرسون. رغم أنه لم يقلها علانية ولم يعترف بها في أيٍّ من حفلاته قبلًا إلا أن الدليل واضح في لوحته، شديد الوضوح. ساندرسون هو الآخر يشعر بالحياة داخل الغابة، بين الأشجار، بنبض كنبض القلب بين الجذور أسفل قدميه الحافيتين على الطين والأوراق.

- ديفيد..

حاولَتْ صوفيا الكلام وقد سرت رجفة في جسدها لكن ديفيد تابع:

- أخبرني صديق قديم لي أن في زمنٍ ما، قبل أن نُخلَق نحن. كانت الأشجار مخلوقات حية – حياة كاملة اعني لا مثل الآن – تسير، تتكلم، تتعارك وتأكل. لكنها منذ زمن بقيت في أماكنها وسقطت في حُلمٍ طويلٍ، في سبات عميق حتى ضربت جذورها في الأرض وأصبحت عالقة، غير قادرة على الحركة والسفر من جديد.

أجبَر ديفيد نفسه على الانسحاب من مكانه والبحث عن مقعدٍ ليجلس، أمام إحدى النوافذ الأخرى المفتوحة، بعيدًا عن مصدر الإضاءة في الغرفة كي يتمكن من مراقبة الطبيعة المظلمة بالخارج دون تعكير لصفو اللون الرمادي والأزرق الداكن بها. أشعل سيجارًا وجلس في مقعدٍ وثيرٍ بني جوار النافذة المفتوحة مباشرة. بالخارج نعق البوم البعيد، أصدرت الجداجد أصواتها من بين العشب. حمل هواء الصيف إليه رائحة العشب المجزوز، عطر الأزهار في حديقة البيت، وشذا خافت قادم من الغابة حوله. شذا بالكاد ملحوظ، بالكاد يكشف عما تخبئه الغابة في أعماقها.

لكن ديفيد باتسي كان يعرف ما في أعماقها، كان يعرف كل تفصيلة للحياة التي تدور بين هذه الأنياب الخضراء حول بيته محمية ومنعزلة عن العالم الخارجي؛ لأنه بعين عقله كان قادرًا على رؤية خطوط مِسك الليل وعطر الريحان المرفرفة فوق صف من الأوركيد البنفسجي والجولق الأصفر.

الحمامات ذات الأعين السوداء النائمة بين فروع كثيفة تحملها بينما الصقور حمراء الأعين كالجمرات تحلّق دقائق قبل أن تعود وتهبط إلى داخل الغابة. طائر الزقزاق الذي يستيقظ ليصرخ فجأة، صرخة قوية وحيدة قبل أن يعود الصمت ليحجب صوته.

كان يعرف الصنوبر، التعريشات العنقودية، الشجيرات المتقزمة، الحيوانات الصغيرة المختبئة في الجحور، الغجر الذين ينصبون خيامهم أحيانًا على طرف الغابة، خيام داكنة كثيرة كالدغل. طائر الكوكو الذي ينادي بصوت يشبه النباح في الصباح ثم يصاب بالخرس ليلًا، الأسماك المتقافزة داخل خط النهر الوحيد، الأوراق الذابلة الصفراء التي تتساقط مع آخر أشعة الشمس بعد أن غفت للأبد وكيف تبدو كالعقيق على الأرض، النمل بين شقوق جذوع كل شجرة، اللحاء السائب الذي تتسابق الحيوانات شديدة الصغر للعقه قبل أن يجف. نسمة واحدة كانت كافية ليرى كل هذا داخل عقله كما لو كانت النسمة قد عادت حاملة معها وعيه إلى داخل الغابة.

هنا كانت الغابة الكثيفة بأمانٍ، برية وعامرة بالحياة، قوية وبعيدة عن البشر والشر.. هنا كانت الغابة بأمانٍ؛ لذا نمت فيها الحياة بقوة ووحشية وجمال بلا حرج وبلا توتر أو انتظار لإنسان يحمل فأسًا ليجلب لها موتًا باكرًا، الرياح التي جاءت من السماء لتمطر على الغابة لم تحمل لها خبرًا سيئًا بأن بني البشر في طريقهم للتدمير، لإزالة الأشجار من أجل أهدافهم الرخيصة الزائلة.

لكن على عكس الغابة، الأشجار والحياة البرية خارج حدودها، بعيدًا قرب الريف كانت على العكس تمامًا. لم تكن الأرض بين الأشجار من طين بل كانت طُرقًا مُعَدَّة، بين بيوت كثيرة وضوضاء بدلاً من خرير الماء الهادئ، التراب والصيحات والبكاء والضحك والضجيج المزعج كانت السيمفونية التي سمعتها الأشجار هناك؛ الرجال في القرى اعتنوا بالأشجار نعم، لكنهم اعتنوا بها بصورة مؤقتة حتى تظل في صحة جيدة حين يأتي وقت قطعها وإنهاء وجودها على الأرض. بدلًا من النسيم حملت أفرع الأشجار في القرى بعد الغابة تراب، الفلاحين جعلوها مصدات للتراب، أصبحت غير قادرة على التنفس، الهمهمة الجميلة للحياة داخلها أصبحت غير مسموعة، بالكاد محسوسة حتى وسط الزحام وصرخات العمال وأدوات البناء وزعيق عجلات العربات. كانت الأشجار في تلك المنطقة حزينة ومنطفأة، تتأمل الغابة بحسرة متمنية أن تنضم إلى أحضانها، قريبة للغاية لكنها أيضًا شديدة البعد، غير قادرة على قلع جذورها من الأرض والسير تلك الخطوات البسيطة لتختفي بين الأشجار الحارسة الضخمة.

علمت الأشجار هناك أن مثيلاتها في الغابة يراقبونهم بحسرة ودونية، وهم محميون هناك داخل جنتهم الخاصة بعيدًا عن الإنسان، كرهت الأشجار في

القرية الإنسان، كرهت أصواتهم وأنفاسهم وجلودهم ورائحة عرقهم. كرهتهم وانتظرت يومًا تكن فيه قادرة على التعبير عن غضبها..

“طالما كان ساندرسون قادرًا على رسم روح الأشجار بتلك الطريقة فلِم لا..” فكر ديفيد وهو يحول نظره إلى داخل الحجرة مرة أخرى، مقتلعًا ذهنه من التفكير في الغابة بالخارج. لم تعد صوفيا هناك. لم يلحظها تخرج، كان مستغرقًا في التأمل حتى إنه لم يسمع نقرات حذائها أو صوت الباب ينغلق. أبعد سيجارته عن فمه ونهض، معدلًا وضع الجاكت البني القصير من القماش الخفيف والذي صنع خصيصًا له. نفض رماد السيجارة عن الصديري الذي ارتداه باللون ذاته وتحرك في اتجاهه إلى خارج الحجرة بعد أن وأدها في المطفأة. كان دايفيد حسن القوام، طويلاً، ولولا شاربه الفضي لظنه الغرباء رجل في الأربعينيات من العمر فقط.

“لِم لا أدعوه لزيارتي؟، لِم لا؟ وقتها يمكننا تبادل الحديث.. عن الغابة، عن الأشجار، وعن الأرز القديمة القابعة في الأسفل هناك”. حين فكر في هذا تردد قليلًا، هل ستمانع صوفيا؟، طوال حياتهما معًا لم تكن صوفيا من النوع الذي “يمانع” أو يعترض على اغلب اقتراحاته أو حتى نزواته لكن حضور ساندرسون إلى هنا!، خشي أن تستاء من الفكرة؛ لذا قرر وهو يخرج من الحجرة متجهًا إلى الأعلى لتبديل ثيابه بسؤالها فورًا. ألقى نظرة أخيرة على النافذة على بعد عدة أمتار منه، للحظات طويلة توقف في مكانه، بعقل خاو تمامًا وبعين متسعة مراقبة، ثم التفت وأغلق باب الحجرة وذهب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- بالطبع، لِم لا.

أجابت صوفيا أثناء جلوسهما لتناول بودينغ الخبز والزبدة بصوت حيادي تمامًا، رفعت شوكتها إلى فمها متابعة:

- لا أعتقد أن دعوته ستكون مشكلة لكن أخشى فقط أن يرى البقاء هنا مملًا من دون رفقاء.

- سيكون مشغولاً في الرسم بالغابة صوفيا ولن يشعر بالملل مطلقًا.

توقف عن الكلام لثانية وهو ينظر إلى الطعام مفكرًا قبل أن يتابع:

- ثم إنني أرغب فعلًا في محاولة النبش داخل عقله قليلًا، كي أعرف كيف يفكر، كيف يرى ما يرسمه، أتمنى أن أتمكن من دفعه للانفتاح في الكلام أمامي.

- بإمكانك فعل أي شيء ديفيد.

أجابت بها صوفيا فورًا ثم توقفت عن الكلام لتفكر فيما قالته. "بإمكانك فعل أي شيء ديفيد".. بدت أشبه لها بعبارة غزل، كتلك التي اعتادت قولها حين كانا أصغر سنًا. لكنهما لم يعودا صغارًا الآن، لم يعودا حتى في منتصف العمر. مجرد زوجين كبيرين في السن بلا أولاد صارت عبارات الغزل بينهما مجرد صور داخل البوم عتيق، تحمل ذكريات لن تعود. التهمت صوفيا المزيد من طعامها وهي تفكر أنه كان عليها الإجابة بـ "بإمكانك فعل أي شيء ديفيد، ماعدا السيطرة على نفسك وعلى حسابنا البنكي. "لكنها بالطبع لن تقولها علانية، لن تصرح أيضًا مدى استيائها من دعوة ذلك الرجل ساندرسون إلى بيتها.

يكفيها مهووس واحد بالأشجار في حدود مملكتها التي تشعر فيها بالأمان، لكن رجلين!. كان هذا أكثر مما تستطيع تحمله لكنها بالطبع لن تصرح، لن تخبره مدى خوفها وقلقها من أفكاره ومما سيضعه داخل عقل زوجها. تحركت عينها تلقائيًا لتنظر إلى المغلف الأسود السميك على الرف على يمينها. الإنجيل، ملاذها الدائم حين يستبد بها الخوف من ديفيد ومن أفكاره. بقيت ناظره باتجاهه لثانية أخرى ثم عادت لتتناول طعامها في صمت.

بعد العشاء جلس كلاهما كالمعتاد مع مصباح صغير جوار النافذة في مكتب ديفيد، هو يقرأ الجريدة، يرفع عينه من حينٍ لآخر لينظر إلى الغابة في الخارج ثم يعاود القراءة، بينما هي تخيط بالإبر فيِ المقعد أمامه، تحيك كنزة لطيفة لشتاء بارد قادم. روتين اعتاده كلاهما كل يوم لسنوات الآن، ماعدا أيام الآحاد، حين يرافقها زوجها – ليسعدها وليكسر الروتين – إلى صالون تنيسون الأدبي للشعر، لتستمتع هي ويحصل هو على غفوة طويلة على أحد المقاعد الخلفية. أخبرته أن "صوته لطيف أثناء القراءة" كما أخبرته مرارًا من قبل؛ لأن الروتين كان يتضمن أيضًا قراءته لمقاطع بصوت عال لمشاركتها فيما يقرأ، كانا يفتحان نقاشات عدة عن مواضيع مختلفة كل يوم. أحيانًا بالسياسة، الآراء في الأوساط المختلفة التي يذهب إليها ديفيد، العمل، مقال عشوائي أثار اهتمامه أثناء قراءة الجديدة. كان يستمتع بطرح المواضيع والأسئلة وسماع إجاباتها، ثم الجدال قليلًا أو الصمت والتركيز أثناء عرضها لرأيها فيما قال.

كان ديفيد ذكيًا، وقد عرف منذ العام الأول لزواجه تقريبًا كيف يكسب زوجته. بعد سنوات طويلة من الوحدة وقضاء أغلب أيامه بين الأشجار والصوبات كانت لديه هي ليعود إليها كل يوم. ولم يرغب في فقدان هذا؛ في بداية زواجهما حاول مشاركتها شغفه بالأشجار، بالغابات والنباتات وكل تلك التفاصيل التي تحتل الجانب الأكبر من عقله، لكنها كانت تبدي امتعاضها منها دائمًا ومنذ البداية، كانت صوفيا خائفة من الشيء الوحيد الذي يثير شغفه بالحياة. ولم يتزحزح خوفها هذا أبدًا لذا بعد عدة محاولات بدا له أن تكرار

المحاولة غباء لا أكثر، فلا هي ستغير رأيها وتشاركه ولا هو سيتخلى عما يحب لأنه مزروع فيه حتى النخاع؛ لذا قرر الصمت، الاكتفاء بالتفكير فيما يفكر فيه دون النقاش معها حتى لا يؤذيها أو يثير توترها.

لكن الصمت التام بدا له أيضًا إيذاء لها، وتدمير بطيء لزواجه؛ لذا بدلًا من كتمان أفكاره تمامًا والانعزال داخل مكتبه قرر من حين إلى آخر إثارة بعض النقاشات معها بخصوص الأشجار وبخصوص أفكاره الخاصة، كان يستمع إلى نقدها بصبر، يجيب أحيانًا بـ "حسنًا صوفيا لم أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية من قبل.." أو "الآن وقد أخبرتني بهذا عليَّ التفكير فيه من ناحية أخرى.." لم يدافع عن أفكاره بضراوة أمامها، لم يحاول أيضًا إجبارها على مشاركته فيها، حرك الماء الراكد ووجد أرضًا محايدة وجعلها سعيدة بالمشاركة دون أن يخبرها بكل شيء، دون أن يثير المشاكل.

كانت تلك المشكلة الأكبر له، العيب الوحيد في امرأة رآها كاملة منذ أن وقعت عيناه عليها. خوفها مما ليس مألوفًا لها وارتباطها الشديد حدَّ الهوس بالدين وبما تعملته من الإنجيل دون حتى التفكير فيه. لم يكن لها يدٌ في هذا بالطبع لأنها تمت تربيتها على تقبُّل الكلمات في الإنجيل دون تفكير ودون جدال. كانت تؤمن بما تقرأه إيمانًا مُطلَقًا؛ لأن والدها علمها هذا لا لأنها مقتنعة به، لَذا كان بإمكانه ببعض النقاش زحزحة تفكيرها أحيانًا وخلخلة معتقداتها لكنها كانت تعود لتتمسك بها بقوة وضراوة.

كانت صوفيا من فئة النساء اللواتي لا يفكرن مطلقًا تفكيرًا مستقلًّا، بل تتشرب ما يفكر به من حولها وتتحدث به وكأنه واقع، وكأنه إيمانها الخاص، تمامًا كالحيوانات التي امتلكت قرونًا دون أن تستفيد بها حقًا، لمجرد أنها لم تتمكن من التخلص من الصفة الوراثية تلك أو لم يطَلْهَا التطور بَعدُ. وآلمه هذا، آلمه أن يحاول دائمًا إخفاء الكثير من معتقداته وأفكاره الخاصة داخله، مدفونة بعيدًا عن المرأة التي يحب أكثر من أي شيء في الدنيا. لكنه فعلَ على أي حال، لينقذ زواجه ولأنه أحبَّها، ربما أقل بعض الشيء من حبه للأشجار، لكنه أحبها..

- ديفيد، ماذا حدث؟ أنت تخيفني!

انتبه ديفيد إلى أن زوجته توقفت عن الحياكة وكانت تراقبه بعين متسعة الآن، أدرك توًا أنه كان غارقًا في أفكاره الخاصة حتى إنه لم ينتبه إلى أنه توقف عن القراءة في منتصف الجملة وبات ينظر لها من أعلى إطار نظارته الذهبية.

- ديفيد؟

عاد لينظر إلى الجريدة، إلى المقال الذي دفعه للتفكير في البداية وقال بصوت متحشرج قليلًا لكنه واثق:

- أريد رأيك في شيءٍ صوفيا، استمعي إلى هذا المقطع عزيزتي.

وضعت صوفيا الغبر والصوف على الأرض وعقدت كفيها فوق ساقيها بينما بدأ هو في القراءة:

- المقطع من الورقة العلمية التي قدَّمَها فرانسيس داروين للمجتمع العلمي الملكي، الرجل عضو بالجمعية الملكية صوفيا وذو سمعة عظيمة بينهم. استمعي إلى هذا بعناية أرجوكِ لأنه مهم.

- أنا منصتة ديفيد..

قالتها بخوفٍ قليلًا وهي تعتدل منتبهة، نظرت خلف كتفها للحظة قبل أن تعود وتراقب زوجها. شيء ما تغير في الغرفة للتو، وكأن الهواء أصبح أثقل أو صوتًا ما انقطع. انتصبت شعيرات قليلة على مؤخرة عنقها فارتجفت. لم يكن لديها فكرة لِم التغيُّر المفاجئ في جو الغرفة الآن لكنها أحست بأن كل شيء حولها كان منتبهًا – لا هي فقط بعد أن كانت توشك على الغفو في مقعدها منذ لحظات – ومن جديد قالت بصوتٍ حاولَتْ إخفاء القلق منه:

- تابع عزيزي.

ألقى ديفيد نظرة أخيرة إلى وجه زوجته من أعلى إطار النظارة الذهبي ثم عدل وضعها على وجهه وهو يقرأ بصوت درامي عميق:

- النباتات كائنات حية وهذا لا خلاف عليه، بعد أن تمكنا من تصنيفها، من معرفة كيف تتغذى، تتنفس، وتتكاثر. لكن رغم كل ما توصلنا له بأبحاثنا العلمية حتى الآن، ما زال من المستحيل تحديد إن كان للنباتات وعي. إلا إذا وضعنا غريزة البقاء في الاعتبار، غريزة البقاء التي تدفعنا نحن البشر للتفكير في حلول لأي موقفٍ صعب أو أي ظرف طارئ نواجهه. لو لم تمتلك النباتات نوعًا أو شكلاً ما من الوعي، كيف إذًا هي قادرة على التكيُّف؟، على حماية نفسها وعلى التأقلم مع ما يحدث حولها؟ إذا وضعنا غريزة البقاء في الاعتبار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قاطعته صوفيا:

- إذا...

ثم توقفت عن الكلام فحدَّق بها لثوانٍ قبل أن يعود ليتابع:

- إذا وضعنا غريزة البقاء في الاعتبار، فكل شيء بالكون يملك شكلًا من الوعي. حتى ولو لم يكن مماثلاً تمامًا لذلك الذي نملكه نحن البشر.

أنهى ديفيد قراءة المقطع مشدِّدًا على كل كلمة من كلماته، رفع عينيه ليراقب صوفيا التي تململت في كرسيها من جديد ونظرت خلفها، الآن كانت متأكدةً من أنها أحست وكأن شخصًا أو شيئًا ما بات حاضرًا فجأة معهما في الحجرة. تلقائيًّا امتدت أصابعها لتتحسس الصليب الذهبي الصغير على صدرها، لم ترغب في الاستدارة والنظر إلى ديفيد لكنها قالت مرة أخرى:

- إذًا، إذًا ليست تأكيدًا..

- صوفيا هذه شهادة رجل علمي من القرن العشرين.

أغمضت صوفيا عينيها وتحركت في كرسيها، النافذة المفتوحة على يمينها لم تنجح في تبديد الهواء الثقيل بالحجرة بل على العكس، رغبت في أن تنهض الآن حالًا وتغلقها بقوة صارخة. حين تحركت للمرة الثالثة أصدر كرسيُّها صوتًا في صمت المكتب، جلست باستقامة واضعة يديها على ساقيها وقالت بصبرٍ:

- الإنجيل لم يتكلم عن أيٍّ من هذا يا ديفيد على حد علمي.

خلع ديفيد نظارته ووضعها فوق الجريدة:

- ولا على حد علمي أنا الآخر صوفيا لكن...

قاطعته:

- لم يذكر الإنجيل أن للنباتات وعيًا، ولا للأشجار ديفيد، لو كانت هذه النظرية حقيقية لكانت ذكرت في الكتاب المقدس أليس كذلك؟

- الكتاب المقدَّس لم ينفِها أيضًا.

قالها بصبر فضاقت عيناها:

- ألا تظن أن معلومة على هذا القدرِ من الأهمية كانت لتذكر بوضوح في الكتاب المقدس؟، بشكل لا يحتمل الشك أو التأويل ديفيد، بشكل قاطع. مثل هذا خطأ، هذا صحيح، هذه جنة وتلك نار، هذا ماضٍ وذلك حاضر وهذا الآخر مستقبل.

لثوانٍ، ثوانٍ فقط رغبَ ديفيد بتحويل موضوع الجدال فيما قالته صوفيا توًا، عن الجنة والنار والحاضر والماضي، أرادَ طرح عشرات الأسئلة لكنه كان يعرف أنها لن تهتم، لن تحاول الفهم؛ لذا كرَّر كلماته متجاهلًا الأسئلة في عقله:

- صوفيا الكتاب المقدس ليس كتابًا علميًّا، على عكسه الرجل هنا يتكلم في مجتمع علمي بإثباتات وأبحاث..

- لم يثبت أيُّ شيءٍ ديفيد مع احترامي، كل ما قاله هو "إذا"، "إذا فكرنا"، "إذا نظرنا إلى هذا من هذه الناحية"، إذا، إذا، إذا. في رأيي هذا مجرد تجديف لا يليقُ ديفيد، في رأيي رجال العلم أولئك بدأوا يفقدون عقولهم.

صمت ديفيد محدقًا خارج النافذة وهو يهمس من جديد:

- قد تحمل النباتات نوعًا من الوعي، ربما ذو طبيعة مخالفة لما نملكه نحن البشر لكنه هناك..

- لم يأتِ الكتاب المقدس على ذِكر هذا..

كررتها صوفيا من جديد بضيق وهز رأسه:

- لا..

ثم صمتَ لحظة وتابع:

- على ما أذكر هذا هو ما ظنه ساندرسون أيضًا، أعتقد أنني أتذكر الآن أنه قال شيئًا من هذا القبيل.

- إذًا ساندرسون رجل محترم وذكي ديفيد، ويستحق أن تدعوه للزيارة.

نظر ديفيد لزوجته، بالطبع اعتقدت أنه قصد تأييد ساندرسون لوجهة نظرها ولم تفهم أن ديفيد كان يقصد تعليق ساندرسون على كون الأشجار تملك وعيًا خاصًا بها، لكنه لم يصحح نظريتها، راقبها تجمع حاجياتها لتغادر المكتب متجهة إلى الفراش بينما استمر هو في الجلوس ناقلًا نظره من الأوراق امامه إلى النافذة.

الوعي، الوعي والرغبة في البقاء. رغم عنه ظلت شجرة الأرز في الباحة بالأسفل تطفو على سطح أفكاره، ليست الأشجار فقط بل مملكة كاملة من النباتات الحية مثلة ومثل صوفيا على سطح الأرض، كيف بقيت طول تلك السنين وكيف احتلت الأجزاء التي احتلتها ورفضت أن تنمو في أماكن أخرى؟، كيف تغلبت على الطوفان والثلج والبراكين وبقيت هي في حين مات غيرها وانقرض من أبناء المملكة الحيوانية.

نظر ديفيد لكرسي صوفيا الفارغ وشعر بالحزن، ثم قرَّر أنها كانت على حق على الأقل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

جاء ساندرسونو ذهب سريعًا، ورغم أن زيارته القصيرة كانت في رأي ديفيد ناجحة ومثيرة للاهتمام، إلَّا أن من سمعوا بها بعد ذلك ولو من قبيل الصدفة لم يفهموا لِمَ وافقَ ساندرسون على زيارة ديفيد من الأصل. لم يكن الرجل صديقًا مقرَّبًا أو حتى من ذات الطبقة الاجتماعية التي ينتمي لها ديفيد، لم يكن من نوع الرجال الذين يقومون بزيارات لمشتري لوحاتهم لتوطيد العلاقات والحصول على المزيد من فُرَص العمل.

ساندرسون لم يكن كذلك، وديفيد لم يكن ممن يستضيفون الفنانين في منزله أيضًا أو على الأقل لم يسبق له فعلها.

كانت الزيارة كلها غريبة في نظر الجميع خارج المنزل الصغير أمام الغابة، وبين جدران المنزل. كانت الزيارة غريبة من وجهة نظر صوفيا أيضًا– على الرغم من أنها أبدت موافقتها عليها– إلا أنها بعد فترة قليلة أدركت أن وجود ساندرسون ليس غريبًا فقط، بل خطرًا.

حين قابلت صوفيا ساندرسون للمرة الأولى، كونت انطباعًا مبدئيًّا عن شخصيته. بالطريقة التي تفعلها النساء، عن طريق مظهره. كان ساندرسون بعيدًا عن الأناقة، البذلة التي ارتداها كانت قديمة بذراعين منتفختين من الأعلى على الطريقة الفرنسية، ارتدى كذلك ببيون داكنًا فوق قميصٍ أبيض كان سيرتديه طوال فترة الزيارة؛ لأنه لم يحمل معه أمتعة سوى أدوات الرسم، ولأنه كان طويل القامة فقد شعرت صوفيا أنه ربما لو كانت قابلت الرجل في ظروف أخرى أو زمن آخر لاعتقدت أنه كان مهرج سيرك، أو على الأقل ممثلاً في المسرح، خاصة مع شعره الذي تركه يستطيل أكثر مما يجب.

لم تفكر فيه على نحو سيء في البداية، الملحوظة الوحيدة التي جالت في عقلها أن الرجل بالتأكيد يستخدم المال الذي يجنيه من بيع لوحاته لإعانة عائلتة مثلًا أو لدعم أم وأخت أصغر ربما، لكن ليس للاعتناء بمظهره، لا لم تفكر صوفيا في الرجل بشكل سيء حتى رأت عيناه، عيناه على العكس من مظهره كله كانت غريبة، جميلة حد البشاعة، بلون أخضر فاتح كالزرع وكأن ضوءًا آتيًا من داخلها. لم تكن عين ساندرسون طبيعية، شعرت كلما ابتسم أو نظر إليها بأن شيئًا ما يحدق بها من الجهة الأخرى، من داخل مقلتيه.

استقر ساندرسون فورًا ما إن وصل ولم يستغرق وقتًا طويلاً ليندمج مع زوجها في أحاديث طويلة استمرت ليلًا ونهارًا، عن الأشجار. أحاديثهما كلها تمحورت حول الأشجار أو تخللتها سيرة الأشجار حتى لو كانت بعيدة تمامًا تناولها كموضوع رئيسي. عرفت صوفيا أن ديفيد أخبر ساندرسون بأن

الأشجار تخيفها وبأنها تستاء إذا دار حديثٌ عنها أمامها؛ لذا تحاشى ساندرسون الحديث في تلك المواضيع أمامها، وحين جلسوا للغداء أو لشرب الشاي كان يكتفي بالصمت أو بالرد بأدبٍ على أسئلتها في أي موضوع عشوائي.

لكن ولأن ديفيد أراد رؤية ساندرسون أصلًا للحديث عن الأشجار، وجدت نفسها أغلب الوقت وحيدة، بعد أن انفرد الرجلان بالحديث بعيدًا عن مسامعها إما في المكتب أو أغلب الوقت بالخارج أسفل شجرة الأرز أو أحيانًا داخل الغابة نفسها.

لم تشعر صوفيا بالراحة طوال تلك الفترة، كان ساندرسون ذكيًّا ولم تعرف كيف توقعه في الكلام أو تعرف ما قاله لزوجها تحديدًا لكنها بدأت تلاحظ تغيُّرات كثيرة على ديفيد، أصبح في خلال يومين فقط أكثر نحافة، ابتلعه الصمت تمامًا، وصار شاردًا. كما أن بيتها نفسه، البيت الذي أمضت فيه حياتها كلَّها، بدأ يتغير من اللحظة التي وصل فيها ساندرسون لعتبة بابهم، أو لنكن أدق. من الليلة الأولى التي بات فيها ساندرسون تحت سقفهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظت صوفيا في منتصف الليل شاعرة بأنها تختنق، وكأن ثقلاً رهيبًا يجثم على أنفاسها. فتحت عينيها وجلست ناظرة حولها، متفحصة الحجرة التي احتاجت إلى دقيقتين لاستيعاب موجوداتها. كان ضوءُ القمر قد سقط من النافذة على البساط أمام الفراش فغلف الحجرة كلها بلون فضي شاحب وبارد. نظرت إلى ديفيد، كان نائمًا بعمقٍ؛ لذا لم تحاول إيقاظه وأغمضت عينيها أثناء جلوسها في الفراش محاولة تهدئة ضربات قلبها المتسارعة.

لم تعتد الاستيقاظ في مثل هذا الوقت من قبل ولا حتى أيام شبابها، بالطبع كأي شخص آخر كانت الكوابيس تراودها أحيانًا لكنها لم تكن قوية أو مريعة بما يكفي لإيقاظها بمثل هذه الطريقة في مثل هذا الوقت. فتحت عينيها مرة أخرى، ما كان هذا؟، كانت متأكدة بأن الشعور بالاختناق لم يكن مجرد كابوس، ما زالت بطريقة ما تشعر بشيءٍ جالس فوق صدرها، بأنفاسها تأبى الخروج من حلقها. مدت أصابعها إلى وجهها، كان ساخنًا بشدة ومتعرقًا.

ثم سمعت الصوتَ، حفيفًا رقيقًا للغاية وكأن أحدهم يجر شيئًا على الأرض خارج باب الغرفة، ثم طرقة قوية وكأن شيئًا ما ثقيلاً سقط على الأرض. قفز قلبُها من مكانه للحظة ونظرت إلى ديفيد النائم. ثم سمعت الصوت من جديد، حفيف طويل كبساطٍ يتم سحبه ثم نقرة كسقوط جذع شجرة على التراب بعد قطعها.

جذع شجرة!؛ انتبه عقلها كله وصارت تامة الاستيقاظ فجأة، قررت ترك ديفيد نائمًا ونهضت من الفراش لترتدي روبًا كبيرًا فضفاضًا فوق ثياب نومها، اتجهت إلى الرف المجاور للفراش لتحضر الكتاب المقدس وما إن التفت أصابعها حول الغلاف الجلدي السميك حتى بدأ قلبها يهدأ.

عاد الصوت من جديد لكنه كان أخفَّ هذه المرة، وكأنه يتحرك مبتعدًا؛ لذا تركت الغرفة وخرجت. في البداية لم ترَ أيَّ شيءٍ أمامها، ثم بدأت عيناها تعتادان خفوتَ الضوء فأصبحت إلى حدٍّ ما قادرة على رؤية الحدود الخارجية للممر بين الغرف، لباسطة السلم، ولأنها كانت ذكية بما يكفي لترك مصباح مضاء في الطابق السفلي، تمكنت من رؤية غرفة الاستقبال وغرفة الطعام. هبطت درجات قليلة فقط قبل أن تسمع الصوت من جديد، حفيف طويل ثم خبطة. الصوت قادم من الأسفل بكل تأكيد.

فجأة وجدت صوفيا نفسها خائفة، خائفة أكثر مما يجب، ضمت الكتاب المقدس إلى قلبها وهي تميل على درابزون السلم لتحصل على رؤية أفضل. عاد الحفيف من جديد لكنه طال هذه المرة، متبوعًا بصوتٍ مُختنقٍ وكأن أحدَهم ينتحب في الأسفل، مالت أكثر لكنها كانت تعرف أنها لن تكونَ قادرة على رؤية الغرفة من هنا، فقط لو يتحرك ما بالأسفل قليلًا في مواجهة الضوء، ستتمكن من رؤية ظله على الأقل.

لم تدرِ صوفيا كيف استجابت لها السماء بهذه السرعة لكن أيًّا كان ما بالأسفل فقد تحرك، قليلًا فقط لكن الحركة كانت كافية لترى صوفيا الظل الضخم مشوه الأطراف، ظلَّ يحوي ثقوب بالعنق، القلب، الرأس، ظلَّ بدون ذراعين وبرقبة أطول مما يجب. كانت تنزلق من فوق درجات السلالم وتفقد وعيها لكنها تماسكت وصعدت بسرعة وبهدوء بقدر ما استطاعت إلى الأعلى. شعرت بشيء طري ينسحق أسفل قدمها الحافية وهي في طريقها للحجرة.

لم تكن في حاجة إلى ضوء قوي لتدرك أن تلك التي انسحقت أسفل قدمها كانت أوراق شجر، وحين التفتت تلقائيًّا إلى الجهة الأخرى من الممر رأت ما توقعته تمامًا، باب غرفة ساندرسون كان مفتوحًا على اتساعه وفي الضوء الخافت أدركت أن لا أحد كان في الغرفة، لم يكن ساندرسون هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تذكر صوفيا أيًّا مما حدث لديفيد في صباح اليوم التالي، مبدئيًا لأنها لم يكن لديها فكرة كيف ستخبره بما رأت دون أن يظن أنها مجنونة، وثانيًا لأنها حتى الآن لم يكن لديها أي فكرة عن حقيقة ما رأته. لم تهبط لتناول الفطور مع الرجلين ذلك النهار وتعللت بأنها في حاجة للانفراد بنفسها قليلًا والقراءة في

الكتاب المقدس، وبالفعل بقيت في غرفتها مرتدية كامل ثيابها وهي تقرأ، وبين الحين والآخر تنظر خارج النافذة، إلى الغابة المتسعة حولها.

سمعت الباب بالأسفل يُفتَح ثم ينغلق وعرفت أن الرجلين تركاها كالمعتاد واتجها إلى الغابة من جديدٍ، ماذا كانا يفعلان هناك؟، لا تعرف. عمَّ يتحدثان هناك؟، عن الأشجار بالطبع. اعترتها رغبة مريعة في إخراج زوجها من هناك وإبعاده عن ساندرسون، لكن المشكلة أنها لم تملك الحجة، لم يكن بيدها حتى دليل مادي على أن ساندرسون شخصٌ خطرٌ، ربما في أفكاره وتأثيره نعم لكنها لم تكن متأكدة من أن ما رأته الليلة الماضية كان له علاقة به، لم تكن حتى متأكدة من أن ما رأته حقيقي.

في الليلة الثانية نامت بعمقٍ، استيقظت قلقة قليلًا نعم لكنها لم تسمع أيَّ شيءٍ خارج عن المألوف، اللَّهم إلا من صوت ديفيد الخافت يتكلم أثناء نومه. نظرت لزوجها مندهشة من عودة تلك العادة له بعد أكثر من عشرين عامًا لم يتحدث فيهم أثناء نومه، منذ عادا إلى إنجلترا تقريبًا. هزته قليلًا فتململ وتوقف عن الكلام. فكرت في أن تنهض لتلقي نظرة بالخارج ثم حدَّثَها عقلها أن لا حاجة لهذا، كان الليل معتمًا والصمت تامًا؛ لذا عادت للنوم.

في اليوم التالي شاركت الرجلين الفطور وتبادلت كلمات شتى مع كل منهم، ديفيد كان صامتًا معظم الوقت الآن؛ لذا دار الحديث بينها وبين ساندرسون أكثر، كان حديثًا مهذبًا لكنها تحاشت النظر في عينيه أثناء الكلام، ما زالت خائفة مما قد تراه فيهما. بالطبع لم تذكر أيَّ شيءٍ مما حدث في الليلة قبل الماضية وبدأت الذكرى نفسها تتلاشى من عقلها، لكنها حذرت الرجلين من البقاء في الغابة لوقتٍ طويل كي لا يصابا بالحمى الهندية، نظرت إلى ديفيد مربتة على يده لتذكِّره باحترام وبدون الكثير من الكلمات بأنه لم يعد صغيرَ السن ليتحمل ضربة من الحمى.

تحدث الرجلين عن الأشجار طوال النهار، وطوال الليل، في المنزل وفي الغابة التي انطلقا سويًّا إليها بعد تناول الطعام والشاي. توقفت صوفيا عن أشغالها اليومية واكتفت بالمراقبة من نافذة المكتب بالدور العلوي، لم يكن باستطاعتها رؤيتهما، لم ترَ سوى صفٍّ طويلٍ من الأشجار كالمعتاد ثم الظلام خلفهم. كانت خائفة، وخوفها حرَّك داخل عقلها صوتًا بدأ في تحذيرها من كثرة تواجد زوجها مع ساندرسون بالغابة.

بعد حلول الليل مباشرة رأتهما معًا يتمشيان بالأسفل خارج الغابة، متجهين إلى المنزل. كان كلاهما قد أشعل سيجارة ووقفا يدخنان أسفل شجرة الأرز القديمة الضخمة في الحديقة.حملت الرياح همساتهما لكنها بالطبع لم تتمكن

من تفسير عمَّا دار الحديث. في تلك اللحظة مرة أخرى شعرت بالشعيرات على مؤخرة عنقها تنتصب، وبشيء ما داخل الحجرة خلفها.

التفتت صوفيا بعنفٍ، كانت الغرفة فارغة إلا من ظلالٍ تتحرك هنا وهناك، ظلَّ المكتب، المقاعد، المصباح، إطار النافذة، وظل آخر طويل قابع جوار الحائط ذو جسد ووجه مليء بالثقوب. هوى قلب صوفيا بعيدًا إلى الأسفل وأطبقت يدها لا إراديًّا على الصليب حول عنقها. لم يكن هناك داخل الحجرة ما يعكس الظل، كان ذات الظل الذي رأته في الأسفل بذلك اليوم المشئوم، لكن ليس له صاحب.

لم يتحرك، شعرت به يراقبها لكنه لم يتحرك. حاولت بجنونٍ إيجادَ تفسيرٍ منطقي لما تراه لكن لا، لم يكن هناك تفسير، كل ما كان هناك داخل عقلها هو الصوت الذي استيقظ الآن صارخًا فيها "اذهبي ونادي على زوجك!! الآن!! ابعديه عن الحديقة الآن!!"

تحركت صوفيا حذرة بعيدًا عن النافذة باتجاه الباب دون أن تحرك نظرها بعيدًا ولو لثانية عن الظل على الجدار بالجهة الأخرى من الحجرة. ما إن خرجت حتى أغلقت الباب بقوة وركضت الدرجات إلى الأسفل حتى وصلت إلى باب البيت:

- ديفيد.

التفت زوجها إليها فورًا والسيجار بين أصابعه ثم عبس:

- صوفيا هل أنتِ يبخير.

- أنا.. أنا..

التفتت حولها ثم نظرت إلى ساندرسون الذي لم يَبدُ على وجهه أيُّ تعبيرٍ، أخذت نفسًا عميقًا وانتصبت متمالكة نفسها وهي تتابع:

- أنا أظن أن عليكما العودة إلى الداخل الآن سادتي، البقاء في الليل بالخارج هكذا ليس آمنًا وسمعت أن البقاء بالذات أسفل أحد الأشجار الكبيرة ليلًا أو النوم أسفل منها بالليل خطر.

كانت هذه حقيقة، سمعتها قبلًا لكنها لم تعد تَذكُر أين الآن، إلا أن قائلتها كانت تتحدث عن نوعٍ من الأشجار السام يدعى "أوبوس" وليس شجرة الأرز القديمة البائسة تلك. توقعت أن يثير ديفيد جدالًا لكنه ابتسم وابتسم ساندرسون أيضًا قبل أن يقول الأول:

- بالطبع ولِمَ لا..

كانا على وشك وأدِ السجائر فأسرعت صوفيا تقول:

- لا لا داعي، يمكنكما متابعة الكلام والتدخين بالمكتب، فأنا لا أرغب فعلًا في إفساد ليلتكما.

نظر الرجلان لبعضهما البعض، كانت تتحدث بسرعة دون أن تعي هي نفسها هذا واستمرت في الحديث وهما يعبران جوارها بطريقة حاولت جعلها طبيعية:

- الرطوبة شديدة هنا بالليل ولا أريد أن يُصَاب ديفيد بأي مرضٍ كما تعرف سيد ساندرسون، لأنه ما زال حساسًا للحُمَى منذ تلك الأيام ً التي قضاها بالشرق.

تركتهما يتابعان طريقهما إلى الداخل ووقفت هي جوار الباب ممسكة به بقوة حتى ابيضت أناملها، كانت تحدق في الغابة البعيدة. للمرة الأولى في حياتها تشعر بأن الغابة تبادلها النظر. كان كل شيء صامتًا، صامتًا تمامًا وباردًا. تنفست بعمق ناظرة إلى السماء؛ كل شيء صامت ويراقب لكن كذلك الإله، يراقب هو الآخَر، يحميها ويحمي بيتها. وهي تثق به. ألقت نظرة أخيرة أمام باب البيت ثم أغلقته وذهبت لتنضم إلى ديفيد وساندرسون.

كان الرجلين قد استقرا في كرسيين متقابلين بالمكتب أمام النافذة المفتوحة واستمرا في التدخين، ما إن دخلت حتى توقفا عن الكلام فورًا وانتقلا إلى تحيتها فردت التحية بأدب وهي تنظر باتجاه الجدار البعيد من الغرفة. ولم يكن الظل هناك الآن. لكنها اتجهت إلى المصباح الوحيد وأطفأته متعللة بأن ضوءه سيجذب الحشرات إلى الداخل. ثم حملت شالاً أصفر حريريًّا ووضعته حول كتفيها وجلست هي الأخرى، ترك ساندرسون مقعده لها وانتقل إلى مقعد آخر بينها وبين ديفيد.

عمَّ الصمت دقائقَ قليلة لم تسمع فيه صوفيا سوى حفيف الأوراق بالخارج، حركة الرياح والسيجار يشتعل ببطءٍ، انعكس شحيح الضوء الآتي من الخارج على شالها الأصفر، شارب زوجها الفضي وعينا ساندرسون التي بدت وكأنها تومض، بدأ ساندرسون الكلام وكأنه يواصل الحديث الذي بدأه في الأسفل:

- كما أخبرتك سيد ديفيد سابقًا، الأشجار. كل الأشجار، تختلف ليلًا عما هي في النهار، في النهار...

قطع كلماته وهو يحني رأسه للسيدة باتسي وكأنه يعتذر عن شيءٍ لم تفهمه ثم واصل:

- تحجب الأشجار نفسها، ترتدي لباسًا اجتماعيًّا تخفي به حقيقتها إن كان تعبيري صحيحًا، لم أعرف شجرةً واحدةً، ولا واحدة يا سيد ديفيد، تظهر طبيعتها الحقيقية في النهار. لكن بعد مغيب الشمسِ تتجرد كل الأشجار

تمامًا، تصبح عارية وحقيقية وبرية في الليل. سترى ما أعنيه حين ترى اللوحة الجديدة لشجرة الأرز في الحديقة.

حرَّك رأسَهُ بأسى:

- للأسف المرة الأولى التي رسمتها فيها لم أرَها سوى بالنهار؛ لذا لم أتمكن من رؤيتها طبيعية ومجردة مثلما رأيتها الليلة الماضية، حين نظرت لها من نافذتي في الثانية بعد منتصف الليل شاهدت حقيقتها على ضوء القمر، حقيقتها المجردة تمامًا.

قاطعته صوفيا بدهشة:

- أنت تعني سيد ساندرسون، أنك خرجت ليلة البارحة في الثانية بعد منتصف الليل لترسم!

- أنا آسف إن كنت سببت الإزعاج لكما بخروجي، حاولت قدر المستطاع البقاء هادئًا.

شددت صوفيا قبضة يديها لكنها حركت رأسها نفيًا:

- لا سيدي لا مشكلة، في الواقع أنا وديفيد ننام بعمق كالصخور، لذا كنت مندهشة فقط لأننا لم نسمعك أثناء خروجك، أنا مندهشة أيضًا لأن كلبنا باكسر لم يعضك.

ابتسم ساندرسون:

- على العكس سيدتي كان باكسر أكثر من سعيد لمرافقتي إلى الخارج.

هنا ضحك ديفيد معقبًا على الكلمات:

- سيد ساندرسونانت بالشجاعة التي يحكونها عنك فعلًا، رجل مميز أنت سيدي العزيز.

حرك ساندرسون رأسه أدبًا وهو يبتسم:

- ليست شجاعة على الإطلاق سيد ديفيد لكن وحي الرسم يقودك أحيانًا رغمًا عنك إلى أماكن لم تكن تتوقع أن تذهب إليها في أوقاتٍ لم تكن تتوقع أن تراها فيها.

- سمعت هذا من قبل، عن رجلٍ يُدعَى هولمان هانت، كان وقت الرسم المفضَّل لديه هو أيامُ القمر المكتمل بين أحواض الزهور في حديقته، ليحصل على التأثير الآتي من سقوط ضوء القمر على الأشياء في لوحاته كلها.

أغمض ساندرسون عينيه لثانية ثم فتحها من جديدٍ لينظر مباشرة إلى الغابة في الخارج:

- الليل يغيِّر كل شيء، كل الأشياء في النهار محجوبة خلف ستار رقيق من التحضر. كل شيءٍ سيد ديفيد سواء بشر، شجر، أو مبانٍ حتى. بعد مغيب الشمس فقط يرتفع ذلك الستار ليظهر كل شيء على حقيقته، قوي، وحشي، بارد، غاضب أو متأمل. الليل سيد ديفيد هو الوقت الذي تستيقظ فيه الحقائق كلها.

أخذ ساندرسون نفسًا عميقًا:

- بالذات الأشجار، في النهار تبقى الأشجار نوعًا ما خاملة ونائمة، حتى لا تتأثر بنا نحن البشر. في هذا يكمن سحرها. تتركنا نفعل ما نشاء، نُحدِث ضوضاء، نصرخ ونتكلم ونتحرك دون أن تبدي أيَّ اعتراض. في الليل فقط وبعد ارتفاع ستار التحضر يعود للأشجار وعيها، تعود مرةً أخرى للحياة بصورةٍ كاملةٍ وتستيقظ نافضة عنها غبارَ النهار. ألم تتساءل أبدًا لِمَ تتنفس الأشجار الأكسجين ليلًا؟

حرَّك ديفيد رأسه فتابع ساندرسون:

- هل تعرف سيد ديفيد أن ويليام هينلي وصفَ هذا من قبل؟

- هينلي؟ الرجل الاشتراكي ذلك؟!

سألت صوفيا بنبرة خرجت من بين شفتيها أقرب للاحتقار منها للسؤال، لكن ساندرسون لم يُبدِ امتعاضًا بل أجاب فورًا:

- الشاعر نعم، كان صديقًا لستيفنسون، الكاتب والشارع العبقري الذي قام بتأليف تهويدات الأطفال الرائعة المعروفة كلها.

أغمض ساندرسون عينيه من جديد وبدأ باقتباس المقطع الشعري لهينلي، ذلك الذي كان يقصده. وفي تلك اللحظة بذلك المكان وتحت تأثير صوته الرخيم. شعرت صوفيا وكان الواقع بالكامل حولها يتبدل، اختفى صوت الرياح تمامًا وكأنها تشاركهم السمع، استطالت قمم الأشجار في الخارج أسفل السماء الداكنة فبدت من بعيدٍ كموجة ضخمة تعلو وتعلو في طريقها لمسح الشاطئ وابتلاعه إلى أعماق المجهول. وكانت هي، صوفيا. وحدها هناك على ذلك الشاطئ، يرافقها صوتُ ساندرسون وهو ينشد أنشودته، كحاصد أرواح يهدهدها لتنام، كي لا تشعر بالألم حين تأتي الموجة وحين تغرق.

في تلك اللحظة عاد هواء الغرفة ثقيلاً للغاية وشديد البرودة حتى إن صوفيا ارتجفت أسفل شالها الأصفر، لم تلتفت هذه المرة لكنها كانت واثقة تمامًا أن

هناك أعيُنَ تراقبها من خلف رأسها، أعين لشيء أو أشياء عديدة باتت حاضرة معهم في الغرفة، يستمعون بإنصات إلى ساندرسون وهو يتحدث.

“حين انتهى ساندرسون من الكلام عمَّ الصمت المكان من جديدٍ، لاحظت صوفيا أن السيجار الخاص بزوجها قد انطفأ منذ وقتٍ، وأنه صار صامتًا كالحجر في مقعده؛ لذا تكلمت هي بصوت هادئ:

- أبيات جميلة سيد ساندرسون.

لم تأتِ نبرتها باردة هذه المرة، مصطنعة قليلًا نعم لكن ليست باردة. ضمت الشال حول كتفيها اكثر وهي تتحاشى النظر خلفها فابتسم ساندرسون وهو يومئ لها بأدبٍ دون أن ينظر باتجاهها مباشرة وتابع كلماته وكأنه يحادث نفسه:

- الأشجار القديمة بالذات، لها شخصية شديدة القوة دائمًا.

من أين أتت تلك الجملة ولِمَ قالها؟، لم يكن لدى صوفيا فكرة لكنه تابع:

- يمكنك جرحهم، إرضاؤهم، محاولة إهانتهم، يمكنك فعل كل ما ترغب بفعله فيهم وسيردون بالصمت، لكن ما إن تقف في ظلالهم حتى يبدأ الرد. حتى تشعر فورًا إن كانت تلك الشجرة الضاربة في الأرض أمامك كارهة وغاضبة أم محبة لك. ستعرف إن كانت تلك الشجرة ستحميك، أم ستطاردك للانتقام.

ابتلعت صوفيا لعابها بصعوبة وارتجفت يداها رغم عنها لكنها آثرت الصمت:

- هل سمع أحدكما من قبل عن مقولة “برنتيسمولفورد”، بأن الله موجود داخل الأشجار.

لم يرد ديفيد لكن صوفيا قالت بثقة:

- لم أسمع عنها في حياتي لا..

- حسنًا، الإله الأعظم موجودٌ في كل شيء حيٍّ. فينا وفي الأشجار خاصة؛ لأنها من صنيعه؛ لذا يمكنك إن كنت شديد التركيز أن تشعر بحضوره فيها، لكن كما الإله موجود بالأشجار، بعض الأشجار الأخرى مثل كل شيء آخر. تفضل الظلام، تفضل الشيطان.

فتحت صوفيا فمها لكنها عادت وصمتت وهي تشعر بالعرق البارد ينزلق من مؤخرة عنقها ليسيل في خطٍّ كالثعبان على ظهرها:

- الشيطان في بعض الأشجار، ألم تتساءلون لِمَ بعض الأشجار لا تقترب منها الحيوانات؟، شجر الزان كمثال، لا يسمع لأي نوع من الحياة بالنمو قريب منه. الطيور لا تبني أعشاشها فيه، السناجب والحشرات لا تستطيع اختراق لحاءه

أو الاحتماء به. غابات أشجار الزان دائمًا ما تكون صامتة كالتابوت. تكاد تشعر بالصمت على طرف لسانك لاذعًا. وعلى عكسه أشجار الصنوبر التي تفضِّل نمو شجيرات التوت البري الصغيرة أسفل جذوعها. كل نوع من الأشجار يختار مساره وعلى عكسنا نحن البشر، الأشجار تلتزم باختيارها حتى آخر لحظة من حياتها على الأرض. حتى تلك التي اختارت الشيطان، وحتى تلك التي اختارت الإنسان رفيقًا لها.

توقف ساندرسون عن الكلام والتزم ديفيد الصمت كالمعتاد لكن صوفيا تكلمت هذه المرة، لم تكن متهكمة أو باردة وحاولت قدرَ إمكانها إخفاء القلق الذي اعتراها. قبضت يديها، اعتدلت في جلستها، استندت إلى ظهر المقعد. كل فعل صغير أمكنها القيام به كي تحفز نفسها لتبدو أكثر ثقة:

- سيد ساندرسون، كشخص متدين أعرف الحكايات؛ أعرف ما يقال أن الشيطان يستغل سوداء الليل ليتجول بين الأشجار بالغابات والحدائق، أسفل ستار البرد والصمت كما تجول يوم ما بين أشجار الجنة ليوسوس.

هز ساندرسون رأسه موافقًا فتابعت:

- لكن افتراض أنه يحضر داخل الأشجار نفسها!، عليك ألا تنسى سيدي أن الأشجار مهما اختلف نوعها فهي مجرد.. خضروات.

ابتسم ساندرسون:

- نحن لا نعرف الكثير عن كيفية تأثر الحياة بالشيطان سيدتي إن لم أكن قد تخطيت حدودي، لكننا نعلم أن الأشجار، كالحيوانات، كالبشر. كلهم حيٌّ وإن اختلفَ شكل الوعي لديهم؛ لذا علينا الاعتراف بأن الجانب المظلم الذي تحملنا الحياة به، لديه مثيل ستحمله الحياة بطريقة ما لثمرة بطاطا غبية وصغيرة مثلًا.

لم يحمل كلامُ ساندرسون أيَّ حِسٍّ فكاهيٍّ، وهو لم يقصد به من الأساس إثارة حس الفكاهة وبالتالي لم يضحك أحد. لكن صوفيا صمتت بعد أن أبدى ملحوظته تلك. وهي تشعر بالصداع ينقر في رأسها محذرًا إياها، باتت واثقة الآن أن حضورًا ما كان معهم هم الثلاثة في الحجرة؛ لأنها شعرت بقوة بتلك الأعين التي تراقب. لم تعرف كيف بالظبط حدث هذا لكن ساندرسون ذي العينين اللامعتين والكلمات عن الأشجار والحياة فيها، والشيطان. بدا وكأن كلماته تتجسد بطريقة ما حولهم، وكأنه يصنع خيطًا خفيًّا لكنه موجودٌ بين مملكة البشر والأشجار.

لم يكن قرارًا حكيمًا، خاصة وسط هذا الصمت وخاصة وكل تلك الغابة حولهم، كلمات ساندرسون لم تكن مجرد كلمات بل كانت أشبه بتعويذة،

ووجدت صوفيا نفسها تشعر بأن الغابة السامقة حولهم تنصت بلهفة، تجتمع وتقترب أكثر، كانوا صغارًا جدًّا وسط بحر من الأشجار ولم يكن من الذكاء الكلام هكذا في حضور أي كان ما تشعر به؛ لذا نهضت ونفضت ثيابها فجأة وهي تنظر لزوجها الذي ظلَّ صامتًا بغرابةٍ:

- ديفيد ما زلت صامتًا تمامًا يا عزيزي، لا بُدَّ أنك تشعر بما أشعر به في الجو، الرطوبة والبرد ذلك. أخشى أن تصيبك الحمى ديفيد، أنا خائفة..

- أنا بخير..

قالها ديفيد كالمنوَّم لكن صوفيا هزت رأسها بإصرار:

- من الأفضل ألا نغامر، سأذهب لحضار الدواء الآن، القليل منه لن يضر أبدًا، أستمحيك عذرًا سيد ساندرسون، ديفيد.

حركت رأسها باحترام للرجلين ثم ابتعدت وغادرت الحجرة لتحضر الدواء المزعوم لديفيد، أغلقت الباب خلفها وفور ما إن انغلق حتى تنفس ديفيد بقوة وانحنى على الرسام:

- ساندرسون.

اختلفت نبرة ساندرسون الآن وهو يواصل الكلام، الحديث الحقيقي الذي كان يدور بينهما أسفل شجرة الأرز قبل أن تأتي صوفيا وتقاطعه، لم يعد الحذر باديًا في الكلام الآن وقد خلَتْ الحجرة من المرأة المراقبة؛ لذا قال ساندرسون بنبرة أكثر ثقة:

- الأشجار تحبك ديفيد، هذه هي الحقيقة. تلك السنوات التي قضيتها في رعايتها جعلتها تعرفك على ما يبدو.

- تعرفني؟

- جعلها مدركة لوجود كيانٍ خارجها يحاول حمايتها ومساعدتها بكل ذلك الشغف، أجل.

- بحق الله ساندرسون! لذا، تلك الأحلام.

قالها ديفيد وصمت لثوانٍ، لم يجرؤ من قبل على الحديث بما يفكر فيه بصوتٍ عالٍ. لم تسمح له صوفيا بهذا قبلًا؛ لذا وجد صعوبة الآن في صياغة ما يفكر فيه في كلمات، لكنه بحث عنها ووجدها وهمسَ:

- لذا يتواصلون معي، يتحدثون لي في منامي.

- نعم..

قالها ساندرسون ببساطة تامة، ابتسمت شفتاه لكن تعبيرات وجهه وصوته لم تحمل سعادة أو ابتسامًا. كان جادًا ومحذرًا حين قال:

- شعرت بهذا حين زرتك للمرة الأولى، ما إن خطوت هنا لرسم شجرة الأرز حتى شعرت بأن تلك الأشجار حولك تعرفك بطريقة ما، لم أكن واثقًا حينها لكن الآن وبعد أن رأيتم عن قرب أكثر. نعم ديفيد الأشجار هنا تعرفك حق المعرفة. الأشجار في الغابة حولك لم تألف وجود كيان خارج حدودها يعشقها ويسعى لمساعدتها وحمايتها من قبل. لم تقابل في حياتها البرية هذا الكيان خارج حدودهم والذي يحبهم بتلك الطريقة.

- لكنَّ ساندرسون بالتأكيد مرَّ كثيرون غيري من هنا قبلًا، وبالتأكيد كان بينهم رجل أو اثنان محبين للأشجار مثلي.

- مروا نعم، لكنك تعيش هنا ديفيد، أمضيت حياتك كلها هنا بالقرب منهم.

صمت الرجلان لثوانٍ، ديفيد يفكر وساندرسون ينتظر. بدأت يدا ديفيد بالارتجاف قليلًا قبل أن يعترف:

- بحق الله ساندرسون، لم يكن شعوري ذلك جنونًا إذًا.

دون الحاجة إلى التفسير أجاب ساندرسون على الجملة التي لم ينطق بها ديفيد بعد:

- الأشجار في الغابة كما قلت برية، والآن وقد أدركت وجودك، وأدركت مدى شغفك بها. هي تسعى لضمك إليها، للانصهار مع ذلك الكيان الشغوف بها والساعي على راحتها.

- ضمي إليها، إذًا شعوري بأنها تلاحقني؟!

أومأ ساندرسون:

- أعتقد أن كلمة "ضمك إليها" أو "دمجك معها" أكثر دقة من ملاحقتك. اسمعني يا ديفيد، الأشجار بطبيعتها ليست شرًّا، قوى الخير هي ما يجذب ويجمع ويضم، الأشجار خُلقت معًا يا ديفيد وترحل معًا من قبل أن نُخلق نحن البشر. هكذا خلقها الإله، معًا. لكنَّ ثبوتها في الأرض وبقاءها بأماكنها جعل الشعور والرغبة في أن تصير "معًا" أكبر، الغابات تجذب غاباتٍ أخرى.

لم يبدُ على ديفيد أنه فهم ونظر إلى ساندرسون بحيرة فاعتدل ساندرسون محركًا يديه:

- قوى الخير لها خاصية الجذب، لأن كما يقولون في الوحدة قوة؛ لذا تحد في كل شيء الخير يفوز في النهاية، لأنه يوحد ويجمع ديفيد. على عكس قوى

الشر التي تلجأ لتفرق، لتعزل ضحيتها وحده حتى تتمكن من إضعافه بما يكفي لتدميره.

- فهمت..

- الآن لأن تلك الأشجار ثابتة بأماكنها طوال تلك السنين، أصبحت رغباتها المكبوتة في جذبِ المزيد والمزيد من إخوتها وأمثالها إليها متراكمة داخلها، تطلقها أحيانًا حين تشعر بأن هناك ما يستحق ضمه إليها؛ لذا تنجذب الحيوانات والطيور والحشرات إلى البقاء في الغابات؛ لأنها حساسة بما يكفي لتلتقط شعور الجذب ذلك.

- يا إلهي ساندرسون!!

قالها ديفيد وهو يفرك عينيه بأصابعه فتابع ساندرسون:

- على عكس الغابات، الأشجار التي تنمو وحدها بعيدًا ينمو فيها ذلك الشعور بالوحدة، بالكراهية، بالرغبة في الانتقام؛ لذا تجدها راغبة في العزل، في الإيذاء والتدمير. خُذْ أشجار الأروكاريا على سبيل المثال. جمالها الخلاب يسمح لها بجذب ضحايا إليها لكنه جذب بغرض الإيذاء وستشعر بهذا بمجرد اقترابك منها، الكراهية في خلاياها.

- إذًا شجرة الأرز في حديقتي؟

- لا، شجرة الأرز في حديقتك ليست مؤذيةً، تاهت عن الطريق ونَمَتْ في أرضِك لا أكثر، مجرد وجود غريب في أرض ليست أرضها وهي تدرك هذا وتدرك مدى حبك لها أيضًا.

نظر ساندرسون خلف كتفه ثم تابع بسرعة وكأنه يصارع الزمن ليقول كل ما يرغب في قوله قبل أن تعود صوفيا:

- شجرة الأرز أصبحت مشبعة بمشاعر البشر بسبب حبك أنت وصوفيا لها؛ لذا ستحميك منهم. أصبحت تعرف أنك رفيقٌ لها وستحميك من رغبة بقية الأشجار فيك.

- ستحميني من حُبِّ الأشجار لي.

- بالضبط، الغابة على عكس شجرة الأرز تعرفك وتحبك لأنها تراك ككيان راغب في مصلحتها، لكنَّ أشجار الغابة معًا؛ لذا يتجسد حبهم لك في رغبة بجذبك إليهم، بإجبارك على ترك حدودك وحياتك المستقلة والانضمام لهم، لتصبح جزءًا منهم ومن دورة حياتهم. الحائل الوحيد الذي يقف بينهم وبينك الآن هو شجرة الأرز تلك.

أومأ ديفيد متوترًا ثم سأل:

- لكن كيف عرفوا يا ساندرسون؟، كيف عرفوا وأنا لم أعتنِ بالأشجار من يوم تركت الهند، بالإضافة إلى أن الأشجار هنا مختلفة تمامًا عن تلك التي كنت أعتني بها هناك!!

ابتسم ساندرسون وهو ينظر إلى الخارج دون إجابة، نظر ديفيد إلى الخارج بدوره. سمعا نقرات حذاء صوفيا عائدًا من الخارج، وصار ساندرسون أكثر حذرًا في اختيار كلماته التالية في حال فتحت الباب وانضمت للحديث فجأة:

- الأشجار دائمًا تعرف، لأن هناك شيئًا واحدًا يجمع بينهم جميعًا ويساعدهم على التواصل، مهما كانت اختلافاتهم ومهما كانت المسافة بينهم.

تحركت قمم الأشجار بالخارج للحظة وسمع ديفيد نعيقَ بومة طارت في الظلام، أصوات أخرى بعيدة للغاية وكأنها صرخات من قلب الغابة نفسها، كان هو من تكلم هذه المرة:

- الرياح..

أومأ ساندرسون:

- الرياح تحمل كل شيء ديفيد، الأشجار تعرف كل شيء في كل مكان على الأرض؛ لأن الرياح تحمل كل شيء، الرياح كما هي مفيدة، خطرة..

في هذه اللحظة وقبل أن يتمكن ديفيد من النطق بأي كلمةٍ فُتِحَ الباب واندفعت صوفيا إلى الداخل والعصبية بادية على وجهها قليلًا، كانت تحمل في يدها زجاجة صغيرة بنية قدمتها إلى زوجها:

- هاك يا ديفيد، الدواء يا عزيزي. سيحميك من حمى الشرق.. لا ديفيد أرجوك جرعة صغيرة فقط!!

قالت الجزء الأخير بسرعة وهي تمد يدها لتأخذ الزجاجة منه بعد أن ابتلع نصفها دفعة واحدة:

- جرعة صغيرة الآن وجرعة أخرى قبل النوم، ستحميك من المرض عزيزي ديفيد.

ثم التفتت إلى ساندرسون الذي كان يجلس مرتاحًا في مقعده الآن وصامتًا. عرف أنها حين ولجت إلى الحجرة فجأة سمعت حديثهما عن الرياح، لم تتمكن من سماع بقية المحادثة لحسن الحظ لكنه كان واثقًا أنها سمعت الجزء الأخير، وتأكد ظنه حين ابتسمت له أخيرًا وهي تحمل الزجاجة بين يديها لتقول:

- دائمًا ما أخبر ديفيد أن لا شيء أكثر خطرًا من الرياح الآتية من الشرق مع الحمى والرطوبة تلك، أنا سعيدة للغاية سيد ساندرسون لأنك توافقني الرأي. عسى أن يرى ديفيد هو الآخر أننا على صواب.

بادلها ساندرسون الابتسام ثم نقل نظراته إلى ديفيد الذي ظلَّ جالسًا في كرسيه البني الوثير، يداه على ساقيه ووجهه في شحوب الشمع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

لم يتكلم أحد..

سقط الصمت ثقيلًا على الجميع، من بعيد نبح كلب ما، نباح طويل حزين كان متبوعًا بنعيق بومة انطلقت من بين أشجار الغابة فجأة، حركت رياح الليل قمم الأشجار الداكنة أسفل السماء التي كانت النجوم ظاهرة فيها بالكاد. حولت صوفيا نظرها بين ساندرسون وزوجها لكنها بقيت على صمتها، ثم التفتت لتنظر إلى الخارج، مراقبة الحركة الهادئة الرتيبة لقمم الأشجار والأضواء الخافتة القادمة من الأسفل، من الحديقة.

أعاد ديفيد إشعال سيجارة جديدة وتكلم هو أخيرًا ليقطع الصمت الذي خيم على الحجرة فجأة:

- أعتقد أنها فكرة مريحة بطريقة ما..

نظر رفيقي الجلسة إليه فتابع:

- كون الحياة كلها متصلة، محيطة بنا من كل اتجاه، كون أنه في الواقع لا يوجد خط فاصل واضح يفرق بين ما هو حي، وما هو غير حي.

- نعم..

قالها ساندرسون وهو يحدق نحو الخارج:

- عليَّ أن أتفق معك في هذا، في أن لا خطَّ فاصل بين ما هو حي وما هو غير حي. الكون في الحقيقة كله واحد، كله متصل. ربما يحيرنا أحيانًا وجود كل تلك الفجوات والفراغات بين جزء ما من الكون والجزء الآخر، مثل السواد في الفضاء حولنا، لكن.. قد لا تكون تلك فراغات على الإطلاق، من قال إن ما نظنه فارغًا، مجرد فجوة بين شيءٍ وآخر هي في الحقيقة فجوة، فارغة؟ كيف يمكننا الجزم بأن لا شيء موجود هناك لمجرد أننا عاجزين عن رؤيته؟!

تحركت صوفيا بعدم راحة في كرسيها، كانت تخاف الكلمات الطويلة التي لا تفهمها، كانت تخشى التفكير الكثير لأن الشيطان بإمكانه بسهولة الاندساس بين الكلمات؛ لذا نظرت بغضبٍ نوعًا إلى ساندرسون الذي قال:

- الحياة بكل شيءٍ، فكرة رائعة. والرائع أكثر أن الإنسان لم يستطع حتى الآن إثباتَ أن تلك الأشياء كلها – بالذات الأشجار – لا تحمل داخلها وعيًا.

- لم يثبت أحد العكس سيد ساندرسون، لم يثبت أحدٌ أن داخِلَها وعيًا.

قالتها صوفيا بثباتٍ وحين نظرا لها أكملت:

- لم يذكر أن الإله خلق أي شيء على شاكلته سوى البشر.

- صوفيا..

قاطعها ديفيد هذه المرة:

- ليس معنى أن هناك حياة تبدو غريبة عنا أو مخالفة لشكل حياتنا أنها غير موجودة، أعتقد أن علينا التفكير بشكل آخر. لم يخلق الله شيئًا ميتًا. كل شيء حي يحمل جزءًا من خالقه. حتى عندما تموت الأشياء، تظل بها حياة من نوع آخر.

- مثل أوراق الأشجار الذابلة.

تابع ساندرسون من حيث انتهى ديفيد:

- حتى سقوط الأوراق الذابلة، حتى التحلل بعد الموت يحمل شيء من الحياة. تفتت تلك الأوراق، سقوطها إلى الأسفل، تبدد رائحتها ولونها، الفطر الصغير الذي ينموا على السطح، ديدان الأرض التي تنبثق من داخل الجسد. بالتأكيد هناك قوى ما تجعل كل شيء حي يتماسك معًا، وحين تنتهي حياته ويبدأ في التبدد، تغادر هذه القوى؛ مغادرتها يعني وجودها من البداية ويعني أنها واعية بأن حياة تلك الأشياء انتهت.

تنفس ساندرسون بعمق:

- هناك الكثير مما لم نفهمه بعد في الطبيعة، طريقة الاحتضار أحد تلك الأشياء، مثلها مثل إبرة البوصلة التي تشير دائمًا إلى الشمال..

قاطعته صوفيا:

- هل أفهم من كلامك أنك تقترح أن إبرة البوصلة تحمل داخلها روحًا يا سيدي؟

ابتسم ساندرسون في الظلام لكن ديفيد هو مَن أجاب هذه المرة:

- صديقنا يعني أن علينا الإيمان بأن هناك قوى في العالم لا نعلم عنها شيئًا بَعْدُ.

ابتسم ثم تابع:

- تلك القوى التي لا نفهمها تعني أن هناك حياة أو نوعًا ما من الوعي في أشياء كنا نظنها ميتة أو جماد دون وعي، مثل مثلًا لِمَ يتحرك النهر دائمًا إلى أسفل الشلال؟، لِم تنمو الأشجار دائمًا فوق السطح في اتجاه الشمس؟، لِم يدور كل شيء في الكون دائمًا وإلى الأبد حول محور؟، لِم تغيِّر النارُ دائمًا

شكلَ أي شيءٍ تمسه دون أن تتغير هي ودون أن تدمره بالكامل؟، إن قلنا إن كل هذه الأشياء تحدث من قبيل الصدفة لا أكثر، هذا يجعل الكون عبثيًا وهذا ما لست مقتنعًا به، ما يقترحه السيد ساندرسون هنا – حتى ولو نظريًا فقط – أن كل تلك الأشياء تحمل داخل ذاتها نوعًا من الوعي، حتى لو كان مختلفًا عما نألفه نحن البشر.

- "نفخ فيها من روحه"، الإنجيل قال إن الإله نفخ في الإنسان من روحه وليس تلك الأشياء الأخرى، أنفاس الحياة..

قالتها صوفيا وهي تنتصب جالسة فابتسم ساندرسون:

- الأشجار هي الأخرى تتنفس بالمناسبة سيدتي، وتأكل، وتهضم، وتتكاثر، وتتحرك، وتتواصل فيما بينها. كما أن لديها استجابة للمحفزات الخارجية ولديها ذاكرة ونظام دفاعي ونظام عصبي. كل هذا تم إثباته فيزيائيًا، ما نقوله هو أنه لم يتم إثباته أو نفيه بعد نفسيًا.

تنهدت صوفيا بعمق وهي تخفي وجهها بالشال الأصفر وكأنها تحميه من نظرة ساندرسون، لكنَّ الرسام كان يحدق في العالم خارج النافذة غيرَ مبالٍ نهائيًا بصوفيا وهو يتابع:

- مَن يعرف، قد تكون هذه الأشجار هناك، كل تلك الأشجار. منبثقة من أصلٍ واحدٍ، قد يكون هناك كيانٌ واحدٌ يجمعها كلها ويحركها كلها. وفي الظروف الملائمة قد يظهر ذلك الكيان، قد يُعلِن عن نفسه لنا نحن البشر، قد يجذبنا إليه لنضيع داخل تلك الدوامة الضخمة من الحياة الصامتة بين الأشجار، أو نصبح جزءًا منها، جزءًا من كيانها. من قالٍ إن هذا لم أو لن يحدث؟، لطالما امتلكت الأشجار قوة جذب هائلة على كلٍّ من البشر والحيوان، من قال إن تلك القوة عاجزة عن امتصاص حياة وعقل الإنسان إلى داخلها.. ربما، ربما تلك هي الطريقة الوحيدة لفهم الحقيقة، لفهم ذلك العالم الغامض الذي ظلَّ مستترًا عنا طوال حياتنا.

كان صوتُ ساندرسون غريبًا في العتمة، وحاولَتْ صوفيا مرارًا الردَّ لكنها لم تجد الكلمات المناسبة لتلقي بها في وجهه مباشرة، كانت خائفة، كلمات ساندرسون بدت كالسحر خاصةً مع صمتِ وظلام الحجرة، مع رائحة العشب المجزوز حديثًا في الأسفل ورائحة الهواء الرطب. كانت راغبة في الجدار وكانت تصرخ من داخلها معترضةً لكنها كانت عاجزة عن إيجاد أو ترتيب الكلمات للرد على الرسام، فقط علمت أنها تكرهه في تلك اللحظة، تكرهه وتخشاه وكأنه الشيطان.

- مزاج الإنسان..

قالها ساندرسون متابعًا:

- يتغير وِفقًا لما يحيط به، فلنقل إنَّكِ جالسة وحدك في الحجرة ثم جاءك زائرٌ، وجود ذلك الزائر بالتأكيد سيغيِّر مزاجك فورًا سواء للأفضل أو الأسوأ، كذلك الطبيعة. الجبال، الشواطئ، الغابات، تؤثر على مزاج الإنسان بالسعادة، الخفة، الرعب، أو الفضول حتى... بالتأكيد لا يمكن لشيء "ميت" إحداث مثل هذا التأثير أو امتلاك مثل هذه القدرة على التأثير على عقل وروح البشر.

تحرك ديفيد في مقعده واضعًا الساق فوق الأخرى بينما تابع ساندرسون:

- هنا في هذا المكان مثلًا، قد تستيقظين شاعرة بالهدوء والراحة لرائحة العشب المجزوز، أو بالخوف لرائحة المطر فوق أوراق الشجر، أو لضربات أفرع الأشجار على نافذة ما أو سقوط جذع في العتمة. أو حتى دون كل هذا، قد تستيقظين شاعرة بالرغبة في النظر إلى الأشجار البعيدة فقط، بينما تتدفق في عقلك الذكريات، الأفكار، المشاعر..

نظر إلى ديفيد وهو يكمل:

- هنا في هذا المكان يمكنك الشعور بحضور الأشجار حولك، بقوتها ورغبتها العارمة في التملك، لأنها حرة، لأنها حية.. ولا يمكن إنكار هذا بالتأكيد.

لم يتكلم أحدٌ بعد كلمات ساندرسون لكن الجميع استشعر الأجواء المشحونة داخل الحجرة، ورأى ديفيد بوضوح من خلال وجه زوجته الجالسة بلا كلام ولا تعبيرات محددة أن هناك شيئًا يتحرك داخلها في طريقه للانفجار، لم يكن راغبًا في أن تصير الأجواء مظلمة أو مشحونة هكذا وأدرك بالتأكيد أن كلمات ساندرسون لم يكن من المفترض أن تقال علنًا، بالذات أمام صوفيا، لذا حاول أخذ منعطفًا آخر في الحديث وهو يقول:

- البحر مِلكٌ للإله وهو صانعة، بالتأكيد هذا ينطبق على أشكال الحياة كلها.

كان ينظر إلى ساندرسون مباشرة وهو يتكلم، متمنيًا أن يكون الرجل قد فهم مغزى الجملة. بادله ساندرسون النظر مجيبًا:

- بالتأكيد، كل شيء من البحر للصحراء للحيوانات، خلقه الإله وسخَّره لخدمة الإنسان، ليحصل على مأواه ومأكله ومشربه. ليكون عاملاً مُساعدًا له في حياته. بالذات النباتات، الغابات، الأشجار. لا عجب أنها تغطي جزءًا كبيرًا من الكوكب أليس كذلك؟، هي هناك من أجل خدمة الإنسان، دون أن تتحرك أو تهرب من أماكنها بعيدًا عن متناوله. لكن في الوقت ذاته، تجد أن على الرغم من أنها ثابته في مكانها، إلا أن قدرة الإنسان على الاقتراب منها تختلف.

البعض يقطع ويأخذ منها دون حساب، البعض يخشى الاقتراب من أشجار بعينها، البعض لا يستطيع حتى قطف زهور بعينها.. لِمَ؟

حاوَل ديفيد الكلام لكنه ابتلع كلماته وهو ينظر إلى صوفيا بينما يتابع ساندرسون الحديث:

- لِمَ أيضًا كل تلك الاساطير المتعلقة بالغابات دائمًا مخيفة ومظلمة؟، لِم ير الإنسان أن الغابات مخيفة وغريبة؟، لِم تكثر حالات الانتحار داخل الغابات دونًا عن أي مكانٍ آخر؟، ما زالت عبادة الأشجار منتشرة في بعض المجتمعات الـ...

قطع ساندرسون كلماته فجأة وهو يحدق إلى الخارج، مباشرة إلى الغابة. قبل أن ينظر ديفيد إلى حيث كان ساندرسون ينظر شعر بشيء ما غريب في الأجواء، وكأن كل شيء اختلف فجأة، وكأن الهواء توقف فجأة عن الحركة. نهضت صوفيا فجأة وعلم ديفيد أنها شعرت بما شعر به بقوة أكبر منه، كانت تشير بذعر إلى الخارج في الأسفل، نظر هو الآخر إلى حيث كانت تنظر. من بين الأشجار وفي الضوء الشحيح القادم من الأسفل لمح شيئًا ما يتحرك، خارج من الغابة. متجه نحوهم وهو يزحف في حركة ملتوية، كان مظلمًا وبينما أشارت له صوفيا كانت تصرخ: "عناقيد"..

لوحت صوفيا بذراعها في وجه ساندرسون الذي نهض فجأة وهي تصرخ:

- لقد أتت، لقد أتت إلى الخارج أخيرًا.. بسببك أنت!!!

حاول ساندرسون الكلام بينما بقي ديفيد محدقًا في الخارج بصمتٍ وهو ينهض بدوره، صاحت صوفيا من جديد وهي تتجه إلى النافذة:

- كنت أعرف، يا إلهي كنت أعرف ان كلماتك ستخرجهم من الداخل، كنت أعرف!

فتح ساندرسون فمه لكن ديفيد أشار له كي لا يتحدث وسأل محاولًا تهدئة زوجته:

- صوفيا ماذا ترين!!

لكن صوفيا استمرت في التحديق بالخارج، واضعة نفسها عمدًا بين زوجها وبين النافذة المفتوحة وكأنها تحجبه عن الغابة وهي تشير إلى الأسفل. حرك الهواء الشال الأصفر على كتفيها كسحابة بينما هي مستمرة في الصياح بهستيرية:

- ها هي هناك تتلوى في الأسفل، بين الغابة وشجرة الأرز. يا إلهي ديفيد، لقد بدأت تعود إلى داخل الغابة من جديدٍ حمدًا لله!!.. حمدًا لله!!.. ظننت أنها

ستأتي إلى هنا، إلى البيت.. إليك ديفيد.”

تراجعت صوفيا برعبٍ وهي تحاول الاستناد إلى أي شيءٍ.. إلى مقعدها ثم إلى الطاولة، تحركت يدها بخوف فأمسك بها زوجها وفورًا أمسكت بذراعه بقوة وانكمشت بين ذراعيه وهي تهمس: “لا تتركني ديفيد، لا تتركني أرجوك”. حاول زوجها التهدئة من روعها لكن صوفيا استمرت في الارتجاف فنظر ديفيد إلى ساندرسون ثم إلى زوجته التي بدت على وشك فقدان وعيها وهو يهمس:

- كان هذا مجرد دخان صوفيا، حبيبتي. مجرد دخان، رأيناه نحن أيضًا. لا تقلقي عزيزتي كان مجرد دخان قادم من الكوخ قرب الغابة.

- لكن، لكن ديفيد، لقد أحدث صوتًا..

ارتجفت بقوة بينما استمر ديفيد في هدهدتها:

- ما زالت تُحدِث صوتًا ديفيد يا إلهي!!، ليست دخانًا، مازلت أسمعها، ذلك الرجل...

نظرت إلى ساندرسون بكراهية:

- ذلك الرجل هو مَن أخرجهم من هناك!!..

همس ساندرسون دون النظر إلى صوفيا:

- ذلك صوت الرياح سيدتي.

جاء صوت ساندرسون هادئًا، غير خائف، لم يستطع أيٌّ منهما رؤية قسمات وجهه في العتمة لكن صوته كان شديد الهدوء، إلا أنه حين تحدَّث بدأت صوفيا ترتجف بقوة أكبر. كانت تعلم من داخلها، بكل خلية في كيانها أن ساندرسون كاذبٌ، كانت تعرف أن ما رأته لم يكن دخانًا، لأنها رأته يتحرك بهدوء وإصرار، وكأن الغابة مدت ذراعيها فجأة في اتجاه بيتهم أثناء حديث ساندرسون، وكأن ساندرسون نبهها وأيقظها، رأت ذلك الشيء يتفرع زاحفًا على الأرض بين الشجيرات وأحواض الزهور في اتجاههم، لكنه توقف فجأة، توقف قبل شجرة الأرز كالموجة التي تكسرت على الصخور.

ثم بدأ يتراجع، عاد ينسحب إلى داخل الغابة من جديدٍ. كانت تعرف ما رأت ورفضَ عقلها تمامًا تصديقَ كلمات الرجل جوارها، أيًّا كان ما رأته فقد أوقفته شجرة الأرز أمام البيت. لم يدرك عقلها حتى كيف أو لماذا لكنها كانت تعرف أن ما شعرت به حقيقي. حاولت التماسك، التصقت بزوجها أكثر. سمعت همسًا، كلماتٍ، لم تتمكن حتى من تفسير إن كانت قد خرجت من فم زوجها أو من فم ساندرسون، لكنها سمعت الهمس.

“جاءت لأننا فكرنا فيها، كلامنا جعلها واعية بوجودنا لذا خرجت في اتجاهنا، لكن شجرة الأرز أوقفتها. لن تتمكن من عبور الحديقة بوجود شجرة الأرز.”

ابيضت أصابعُ صوفيا وهي تقبض على ذراع زوجها الذي أبعدها عن النافذة قدر الإمكان، التفت وهمست:

- ربما، ربما يستطيع عامل الحديقة، ربما يستطيع التأكد من...

لكن ساندرسون قاطعها:

- اسمحي لي سيدتي.

وقبل أن يجد أيٌّ من صوفيا أو ديفيد وقتًا للاعتراض كان ساندرسون قد انطلق خارج الحجرة، سمعا باب البيت يُفتَح من الأسفل وراقبا معًا جسده الراكض يختفي في ظلمات الليل باتجاه الغابة. استغل ديفيد الفرصة ونادى خادمة المنزل، لحظاتٌ وفُتِحَ الباب لتطل الخادمة فأمرها أن توقد مصابيح المنزل كافة. حركت رأسها بطاعة ثم غادرت من جديد فحرك ديفيد يدَهُ على رأس زوجته في رفقٍ، ومعًا سمعا حفيف أوراق الأشجار الملاصقة للبيت وهي تصطدم بالجدران الخارجية؛ لذا استغل ديفيد الفرصة وقال فورًا:

- أرأيتِ عزيزتي صوفيا؟، هناك رياح على وشك البدء. هذا هو الصوت الذي سمعتِه.

ضمها إليه أكثر محاولًا التخفيف من ارتجافها، لكنه لاحظ أنه هو الآخر كان يرتجف، ضربات قلبه كانت مسرعة. وعرف أنها لاحظت هذا كما عرف أن بوسعه الكذب بسهولة إن سألت وإخبارها بأن هذا كان من خوفه عليها، همس من جديد محاولًا تهدئة زوجته:

- الرياح بدأت لذا سمعتِ صوتها، وما رأيته لم يكن سوى الدخان قادم من الكوخ هناك في بداية الغابة. ربما كان عامل الحديقة يحرق بعض الأخشاب خارج بابه أيضًا. أرأيتِ عزيزتي؟، كل شيء على ما يرام، لِم أنتِ خائفة هكذا.. اهدئي حبيبتي..

استمرت صوفيا في الالتفات إلى النافذة ثم إغماض عينيها وهي تجيب:

- أنا خائفة عليك أنت ديفيد، عليك أنت!! أنا خائفة من كلمات ذلك الرجل ومن تأثيره عليك، أعرف ان هذا يبدو طفوليًّا لكن.. يا إلهي.. ديفيد، أنا متعبة للغاية، متعبة وخائفة للغاية.

مسد ديفيد رأسها ثم أخذ يديها بين يديه وقبَّلهما وهو يتكلم، بأقصى قدر من الهدوء استطاع النطق به:

- أنتِ مرهقة من الزيارة حبيبتي، لستِ معتادة على وجود زوار بالبيت. سيذهب ساندرسون غدًا وستتمكنين من الحصول على الهدوء والراحة، لا تقلقي.

- ظننت للحظة...

قالتها صوفيا وهي تعتدل ناظرة إلى وجه زوجها، بدت تعبيرات وجهها غريبة، هشة:

- ظننت أنك تبدو مختلفًا ديفيد، بسببه، بسبب ساندرسون.

- صوفيا حبيبتي لا تقلقي، لم أكن أفضل أو أسعد في حياتي.

قالها ديفيد بسرعة وهو يضم زوجته، دافنًا رأسها في صدره وهو ينظر عبر النافذة إلى الخارج. وفي خلال لحظات سمع الباب يُفتَح من جديد في الأسفل، التفت مع زوجته ناظرًا إلى باب المكتب حيث دخلت الخادمة مع المصابيح، تركتها وخرجت ثم دخل ساندرسون ليعلن:

- لا شيء هناك، كان أحدهم يحرق بعض أوراق الأشجار لا أكثر.. مجرد دخان.

لكن ساندرسون كان يرمق ديفيد بنظرة فهمها الأخير، ارتمت صوفيا في أحضان زوجها مرة أخرى وحين أبعدت نظرها عن ساندرسون حدق بديفيد بقوة، ثم تكلم محاولًا جعل كلماته تبدو طبيعية قدر المستطاع حتى لا تلاحظ صوفيا:

- الرياح بدأت، وبدأت تحمل الدخان من داخل الغابة.. إلى خارجها باتجاه البيت.

لكن صوفيا لاحظت ما حاول ساندرسون إخفاءه.. لسببين؛ الأول كان تلك اللمعة القوية في عين ساندرسون، الإضاءة الغريبة في عينيه التي انعكست داخل عيني زوجها في اللحظة ذاتها، رأت ملامحه تتغير لحظيًا وعلمت أنها لم تتخيل هذا. السبب الثاني كان الطريقة التي نطق بيها ساندرسون كلماته.

الطريقة التي قال بها: "الرياح بدأت تحمل الدخان من داخل الغابة إلى خارجها"، عرفت صوفيا أن الجملة حملت معنى أكبر من ذلك الذي تفوّه به ساندرسون. من داخل الغابة إلى خارجها؛ لم يكن ساندرسون يتحدث عن الرياح ولم يكن يقصد الدخان بكلماته. في تلك اللحظة تأكدت أنها كانت على حق، شيء ما جاء من داخل الغابة زاحفًا باتجاه بيتها، محمولًا بين عتمة الليل والرياح، مسترشدًا بصدى كلمات ساندرسون التي ظل يبثها طوال الليل كالتعويذة.

لم تكن الرياح بل كانت الغابة نفسها، وقد انتبهت الآن وجاءت راغبة في أخذ زوجها منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

- لا أعرف ديفيد، لدي شعور رهيب تجاه ذلك الرجل.

قالتها صوفيا وهي تستلقي في الفراش لاحقًا بالليلة ذاتها، مغلقة كافة النوافذ بالحجرة، عاقدة أصابعها حول أحد الخيوط بثياب نومها. كان صوتها مكسورًا وضعيفًا، حاول ديفيد التخفيف عنها لكنها تنحت بعيدًا عنه فسأل:

- لِمَ عزيزتي؟، أي شعور تحديدًا؟

- لا أعرف، أعني...

توترت صوفيا أكثر لكنها لم تتكلم لدقائق عديدة، كان ديفيد معتادًا على نوبات القلق التي تأتيها من حين لآخر لكنه في تلك الليلة لم يكن راغبًا في الجدال، خاصة بعدما حدث مع ساندرسون، أراد فقط التخفيف من روعها حتى تنتهي الليلة على خير؛ لذا ركز انتباهه كله عليها، منتظرًا. وبالفعل قالت بعد دقائق:

- ساندرسون يبدو كشخص.. لا أعرف ديفيد. مُنوَّمًا نوعًا. طريقته بالكلام، تلك الأشياء التي يقولها.

- لا أعتقد أن هذه مشكلة، كونه على قدر كبير من العلم.

- لكن تلك الأفكار ديفيد وتلك الكلمات التي يقولها.

- مصطلحات جديدة لأشياء توجد منذ الأزل صوفيا.

قالها مبتسمًا، معتقدًا أن هذا سيجعلها أفضل، سيجعل شعورها بالضياع أقل حين تعلم أن ساندرسون لم يكن يقترح نظرياتٍ أو مصطلحاتٍ جديدة ليخيفها أو يشعرها بالضآلة. لكن صوفيا قالت:

- وهذا هو ما أخشاه، شعرت لوهلة أن ساندرسون أحدَ تلك الأشياء القادمة من الماضي لتدمر حياتنا، أحد أشكال الشر الذي تم تحذيرنا من ظهوره بنهاية الزمان.

تنفس ديفيد بعمق، كان يعرف مدى تمسُّكها بكل تلك الأشياء المذكورة في الكتاب المقدس، وبأنها تعتبر مرجعية كل شيء له سواء كانت في إيمانها أو خوفها. كان يعرف أنها استشعرت بعضًا من الحقيقة فيما حدث الليلة إلا أنه لم يعرف بالضبط كم استشعرت. كان راغبًا في الجدال معها لكن الليلة لم تكن مناسبة لطرح النظريات، لم يرغب في زيادة الحديث عن ما حدث؛ لذا انحنى وأمسك بيديها:

- صوفي حبيبتي، ساندرسون ليس مسخًا قادمًا من زمنٍ آخر، ليس شيطانًا. الرجل رسام وشاعر وهو لم يتحدث عن شياطين قادمة من الغابات أو قوى شر. كل ما قاله أن علينا اعتبار إمكانية وجود وعيٍ ما جماعي بين الأشجار كلها.

- وهذا ما أعنيه، طريقته في الحديث عن الظلام داخل الأشجار، قوة وعيها تلك. جعلني أشعر كما لو كان يتحدث عن ذئب في ثياب حملان. ولوهلة شعرت بأنه يتيح الفرصة للأشجار حولنا لتستمع ديفيد، لتنتبه.

لم يتحدث ديفيد لثوانٍ لكنه عاد وسأل:

- ظننت أنك لم تصدقي كلماته صوفيا، بأن للأشجار وعيًا.

- الشيطان يحيا بيننا ديفيد، الشيطان دائمًا يستمع وإن حصل على الأدوات المناسبة سيستخدمها ضدنا. هذا ما أؤمن به.

شدد ديفيد قبضته على يديها:

- لكن ساندرسون لم يستدعِ الشيطان صوفيا، كان يناقش نظرية فقط، مثل تلك التي قرأتها عليكِ من المقال بالجريدة، هل تذكرين؟

أومأت صوفيا لكنها عادت وقالت:

- هذا لعب بالنار ديفيد، الخوض في تلك النظريات كلها لعب بالنار وخطر ولا أظن أن علينا...

لكنه قاطعها قائلًا:

- من أجل الإيمان أكثر بعظمة الإله الذي خلق هذا الكون، علينا أن نبقي آذاننا صاغية واعيننا مفتوحة لأي معرفة جديدة تتيح لنا التفكر أكثر في الكون.

- الاستماع إلى المعلومة شيء، ومحاولة إثباتها شيء آخر تمامًا عزيزي.

قالتها صوفيا وهي ترتجف، ثم وضعت أصابعها التي حررتها من بين يديه أسفل ذقنه لتنظر مباشرة بعينيه:

- وهذا ما أخشاه أكثر من أي شيء آخر، طبيعتك التي أعرفها يا زوجي العزيز.

- صوفيا..

- أنت لا تؤمن بالإيمان بمعلومة قبل تجربتها ديفيد إن كان في وسعك تجربتها.

صمت ديفيد ثم نهض، لم يرغب في التعليق على كلماتها، في الواقع لم يكن لديه ما يعلِّق به على كلماتها؛ لذا أخذ طريقه إلى جانبه من الفراش واندس

أسفل الأغطية وبقي صامتًا، إلا أن صوفيا قالت وهي تندس أسفل الأغطية بدورها:

- أحيانًا ديفيد، علينا الإيمان بأن هناك ما هو أبعد من قدرتنا على التجريب، علينا الاستسلام للحد الفاصل بين ما نستطيع تجربته وبين ما يجب احترام كونه من الغيبيات.

- ربما...

لم يقل ديفيد سوى "ربما" وعاد للصمت، رمقته صوفيا قليلًا ثم أطفأت المصباح وسكنت في الفراش. مرت الدقائق صامتة بينهما، لكن ديفيد كان عاجزًا عن النوم، ظلَّ يحدق بالسقف عاجزًا عن اجتلاب النوم، في النهاية نهض قليلًا هامسًا باسم زوجته، شاعرًا بأن عليه التخفيف عنها أكثر، وحين لم تجبه عوَّل الأمل على أنها استسلمت للنوم بعد الليلة الشاقة، لكنه قال على كل حال بصوتٍ خافتٍ:

- أيًّا كان ما تخشينه صوفيا، عليكِ تذكُّر أمرٍ واحدٍ. إن كان هناك قوى بالأشجار أم لا، إن كان هناك وعيٌ أو لم يكن. هناكَ حائلٌ كبيرٌ بيننا وبين تلك الأشياء؛ أجسادنا المادية

انتظر عدة دقائق أخرى وحين لم تجب صوفيا عاد إلى الوسائد وبدأ صوت تنفسه في الانتظام. لكنها لم تكن نائمة، لم يكن قد أُغمِض لها جفن، لكنها لم ترغب في الإجابة لأنها عرفت أن الغابة حولهما تستمع، تنصت بتركيز لكل كلمة تُقال بين جدران بيتها. كان ديفيد على حق، جسداهما كانا حائلاً بين حياتهما وروحيهما وبين أي كان هذا الشيء الذي يحوم داخل الغابة بين الأشجار وداخلها. لكن الليلة، الليلة صنع ساندرسون فوق هذا الحائل جسرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان منتصف الليل تقريبًا حين استيقظت صوفيا من جديدٍ فزعةً، مدت يدها إلى قلبها محاولة أن تستمد الشعور بالأمان منه، من كونه هناك داخل صدرها ما زال يدق، ما زالت حية. كانت أحلامها بشعة، كوابيس عن الغابات والأشجار. في كوابيسها رأت نفسها مستلقيةً بين أوراق شجرة بعشرة آلاف فم تهمس، بصوتٍ مماثلٍ تمامًا لذلك الذي سمعته الليلة في المكتب. كانت الحجرة مظلمة تمامًا، لكن حولها تمكنت صوفيا من التقاط ذات الهمس الذي لم ينتهِ داخل الكابوس، ما زال هناك.

تذكرت ما قاله زوجُها عن الرياح التي بدأت تلك الليلة، ومعها بدأ حفيفُ الأشجار بينما تحت فروعها بجدران البيت، ذلك كان الصوت الذي سمعته،

ذلك كان الصوت الذي حثَّ كل هذه الأحلام على الخروج من عقلها الباطن. لم تأتِ الكوابيس وسكانها معها إلى الحجرة، كانت مجرد رياح في الخارج.

لكن الهمس بعد دقائق بدا لها أكثر انتظامًا من مجرد صوت رياح، لذا تسمر جسدها فجأة. أصاغت السمع لتدرك أن تلك الهمسات كانت صوتًا آدميًّا، بدأ جسدها يقشعر وهي تجلس محدقة في جنبات الحجرة التي لا تراها. حين اعتادت عيناها على الظلام قليلًا أدركت أن النافذة كانت مفتوحة –رغم أنها كانت واثقة من أنها أغلقتها قبل النوم – لكن باب الحجرة ظلَّ مغلقًا.

احتاجت صوفيا إلى دقيقة أخرى حتى تدرك أن تلك الهمسات كان مصدرها ديفيد، وبدأ جسدها رغم عنها يسترخي حين ميزت نبرة صوته الخافتة في الظلام. لكن الهدوء اختفى في لحظة حين طرح عقلها السؤال:

"لِم صوتُ ديفيد بعيدٌ للغاية هكذا؟"

وفي لحظة أدركت صوفيا أن الهمس لم يكن قادمًا من حيث يفترض به أن يأتي، كان ديفيد يتحدث أثناء نومه؛ لكن الصوت لم يكن قادمًا من الفراش إلى جوارها؛ لذا مدَّت يدها متلمسة الطاولة الجانبية بجوار الفراش لتشعل شمعة اعتادت تركها هناك. بعد عدة محاولات بدد الضوء البرتقالي الشاحب العتمة قليلًا لترى صوفيا تفاصيل جسد زوجها الواقف على الجهة الأخرى من الفراش، بعيدًا بالقرب من منتصف الحجرة، ووجهه مولى شطر النافذة المفتوحة.

- ديفيد؟!

همست صوفيا برعبٍ، مجفلة من نبرة صوتها نفسها التي أتت متقطعة في الظلام. بدا ديفيد غريبًا وهو يتحرك خطوة تلو الأخرى، بأقدام بدت لها رخوة، طريقة سيره كانت غير طبيعية، طريقة وقوفه كانت غير طبيعية، وصوته الهامس كان مسرعًا بكلمات لم تتمكن حتى من تفسيرها. لم تكن تلك المرة الأولى التي يتحدث فيها ديفيد اثناء نومه، لكنها الآن في تلك اللحظة وهي جالسة في الفراش وهو هناك يقترب من النافذة شعرت وكأنه ليس زوجها، ليس ديفيد الذي عرفته.. كان هناك شيء آخر به، وكأن ظل ضخم يجثم على كتفيه ويدفعه للأمام.

- ديفيد..

كررتها بنبرة أعلى قليلًا وهي ترتجف من شعرها إلى أخمص قدميها، هذه المرة توقف ديفيد في مكانه واستدار نحوها، وبصعوبة منعت الصرخة من الانفلات من بين شفتيها. كان وجه زوجها شديد الاحمرار، وكأنه أخرج رأسه توًا من قدر ماء يغلي، شفتاه على عكس وجهه كانتا زرقاوين بلون الموت،

بلون الغرق. لكن أكثر ما كان مرعبًا كانت عيناه، ليس لأنهما مفتوحتين على اتساعهما لكن لأن تلك اللمعة وذلك اللون بهما لم ترَه في حياتها إلا مرة واحدة، الليلة، بعيني ساندرسون.

لم تعرف صوفيا من أين جاءتها القوة لكنها نادت زوجها للمرة الثالثة، وأخفضت قدميها لتلمس أطرافُ أصابعها الأرضَ الباردة مستعدة للتحرك نحوه فورًا، ظلَّ ديفيد يحدق بها بلا أي تعبيرٍ على وجهه، وكأنه تعرف من أين يأتي الصوت لكنه لم يعرف صاحبه، لم يعرفْ من هي. وقبل أن تنهض التفت ديفيد بجسده وتحرَّك مباشرة باتجاه الفراش ليعود ويستلقي هناك، بينما عيناه ما تزالان مفتوحتين تحدقان في السقف.

- ديفيد، هل أنت!؟

لكنها لم تتمكن من استكمال جملتها، ماذا تقول؟، هل أنت بخير ؟، هل تعرفني؟، هل أنت هنا معي؟. لا لم يكن معها، كان جسده هنا نعم لكن ديفيد زوجها لم يكن هنا، كان بمكان آخر داخل عقله، مكان لم ترغب في رؤيته. حركت أصابعها لتغلق عينيه المفتوحتين، سامحة له بالعودة إلى النوم الطبيعي. ثم نهضت ملتقطة الشمعة – التي حاولت حجب ضوءها عن زوجها – والكتاب المقدس الذي قبضت عليه بقوة مستمدة منه بعض الأمان.

تحركت صوفيا باتجاه باب الحجرة، وحين تأكدت أنه مُقفَل بإحكام اتجهت إلى النافذة. كانت تشعر بأن هناك عينًا تراقبها، ليست عينًا واحدة بل أعين كثيرة، ولثانية ظنت أنها رأت شيئًا ما بطرف عينها اليسرى فحركت الشمعة ليبدد اللهب الظلام عن جانب الحجرة البعيد. لم ترَ أحدًا هناك لكنها شعرت بوجود أحد، شعرت بذلك الظل الضخم الجاثم في جانب الحجرة، يراقبها منتظرًا.

ارتجفت صوفيا مقاومة رغبتها في الفرار من الحجرة فورًا، لم تكن لتترك زوجها، ذلك الرسام جلب الشيطان إلى بيتها كما توقعت، مهما قال ديفيد ومهما حاول إقناعها كانت تعرف أن الرجل حملَ الشيطان مباشرةً من الغابة إليهما. وكانت غاضبة.

أغلقت صوفيا خصاص النافذة بقوة محدقة في الغابة البعيدة، السماء التي كان عددُ النجوم بها شحيحًا الليلة، رائحة الرياح المحملة بالخضرة عبرت إلى داخل الحجرة لثوانٍ قبل أن تنقطع. حينها سمعت صوت ديفيد مرة أخرى خلفها، هذه المرة علًا صوته عن الهمس قليلًا لكن نبرته كانت حادة وباردة:

- إنهم.. ينادونني، يحاولون استدعائي، يرغبون في.

التفتت صوفيا بقوة حتى كادت الشمعة تسقط من يدها، كان زوجها جالسًا، بذات النظرة وذات الوجه المحتقن. كان ينظر باتجاهها لكنها علمت أنه لا

يراها، كان ينظر مباشرة عبرها إلى النافذة، إلى الغابة خلفها.

- يحتاجون إليَّ، لطالما كانوا في حاجة إليَّ. عليَّ أن أذهب لمساعدتهم، عليَّ الذهاب.

ضمت صوفيا كتابها الي صدرها بقوة وقد بدأت الدموع تتجمع في عينيها، وضعت نفسها بين النافذة وبين زوجها شاعرة بالعجز. اللعنة على ساندرسون، اللعنة على الرجل الذي جلبَ الوبال على حياتها.

- لكن ليس الليلة، ليس الليلة..

قالها ديفيد وسقط في الفراش نائمًا مرة أخرى، عندها إنهارت صوفيا. لطالما عرفت مدى حُبِّ زوجها للأشجار، لطالما عرفت قوة تعلُّقه بها وإيمانه الكامل بأن كل شجرة ذات شخصية منفصلة، أخبرها بذلك النداء يومًا ما في زمنٍ بعيدٍ لكن من أجلها تجاهَلهُ، كانت تعرف دائمًا أن ديفيد يخفي ولعَهُ بالغاباتِ عنها لأنه لم يكن يرغب في إخافتها، كانت تعرف دائمًا أنها طالما تمكنت من كبت تلك الرغبة فيه سيكون بأمانٍ؛ لذا حاولَتْ طوال حياتها، حاولت إثناءه عن البقاء في الغابات، حاولت إحباطه حين يبدأ في الكلام عنها، يعلم الله أنها حاولت كل ما بوسعها.

حتى جاء ذلك الرجل وضرب بكل ما فعلته عرض الحائط، لم يكن ديفيد زوجها في حياته على هذا القدر من الهشاشة مثلما كان الليلة، وكل ذلك لأن ساندرسون أخرج كافة أفكار ديفيد من القوقعة التي احتجزها فيها، طرحها هناك في العلن بل وغذاها بأفكاره الخاصة.

اقتربت صوفيا بساقين مرتجفتين من الفراش، وضعت الشمعة الصغيرة على الطاولة جوارها وراقبت زوجها النائم، ضمت يديها وانحنت وتوسلت. للمرة الأولى منذ سنوات صلت وبكت حتى تبدَّد الليل، حتى تقرحت ركبتيها، وحتى بدأت طيور الصباح خارج النافذة المغلقة في التغريد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

مع رحيل ساندرسون أخيرًا وعودة الحياة إلى طبيعتها في بيت عائلة باتسي، بدأت صدمة تلك الليلة الغريبة تتلاشى في عقل صوفيا؛ لم يتحدث زوجها عن الحادث أبدًا ولا عما حدث قبله تلك الليلة، وبالتالي – ولأن ساندرسون لم يعد هناك – بدأت صوفيا تحول الذكرى داخل عقلها إلى تبريرات. ربما كانت مرهقة أكثر مما يجب، ربما تخيلت كل ما حدث، ربما لم تَبدُ الأمور كما كانت في حقيقتها لأنها كانت مشدودة الأعصاب بسبب وجود الرسام في البيت. كانت بحكم السن تعرف أن كثيرًا من الأحداث التي نعتبرها في لحظة حدوثها استثنائية وغريبة، إذا انتظرنا فقط، سنجد أنها طبيعية تمامًا بل وشائعة أيضًا لكن الصدمة الأولى هي ما يجعلها تبدو بكل هذا القدر من الغرابة.

في صباح رحيل ساندرسون، لم ينهض ديفيد لوداعه. كان طريح الفراش بسبب الحمى؛ لذا اهتمت صوفيا بنقل تحياته إلى الرسام بدلًا منه وقد شعرت بداخلها بالراحة لأن زوجها ليس حاضرًا، ليس تحت رحمة عين الرسام المخيفة من جديد. لكن في ذلك النهار لم يبدُ الرسام غريبًا، بدا عاديًّا جدًّا في قبعته الريفية وقفازاته. "كان مجرد رسام" كرَّر عقلها، مجرد رسام غريب الأطوار؛ لذا سمحت لجسدها بتقبل ذلك الشعور العارم بالسعادة لمشاهدته يرحل، حتى إنها ابتسمت في وجهه وهو ينحني لتحيتها ويقبِّل يدها، لم تكن ابتسامة نفاق للمرة الأولى منذ زارهما، كانت سعيدة بالفعل لأنه رحل، ولأن زوجها لم يقترح أن يكرر الزيارة، ولم تقترح هي أيضًا تكرارها.

رأت العربة تبتعد، ومعها ابتعدت ذكرى الليلة التي جلس فيها ساندرسون داخل المكتب معهما لتنتطفئ في جانب مظلم من عقلها، ككتلة من الفطر الخامل بلا محفز ليعاود الظهور والانتشار. وسرعان ما عاد بيتها إلى روتينه الهادئ والممل. لم يعد اسمُ الرسام يُذكَر بينها وبين زوجها على الإطلاق، وبالطبع لم تخبره بأي شيء عن حادث سيره أثناء النوم، لكنها عجزت تمامًا عن النسيان، عجزت عن زحزحة خوفها مما حدث تلك الليلة.

لم تكن صوفيا ربما مهتمة كثيرة بالعلم، لكنها كانت سيدة ذات روح طيبة، وكانت تعشق ديفيد كما تعشق تمسكها بدينها تمامًا، كان الاثنان واحدًا بالنسبة لها. لأن هذا ما آمنت به طوال حياتها، القوة المستمدة من الروح، القوة المستمدة من تلك الكلمات في الكتاب بين يديها والقوة والأمان المستمدان من زوجها؛ لذا دعت كل ليلة وكل صباح فور استيقاظها أن يُحفَظ زوجها من أي أذى، ألا ترى فيه أيَّ مكروهٍ كان.

دعت وأدارت بيتها بكل هدوء ممكن، مراقبة لكنها في ذات الوقت صامتة، دافعة تلك الذكرى للأسفل أكثر، للخمول أكثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء الصيف تلك السنة رائع الجمال وشديد القوة، ضربت الأمطار البلاد بقوة في الفصول التي تلت الربيع حتى صارت كافة الزهور براقة، حمل الجو باستمرار رائحة العشب المبتل وبددت تلك الألوان المتداخلة للطبيعة لونَ المطر الرمادي. لكن الرياح عصفت على إنجلترا كلها حتى صارت البلاد وكأنها في حالة ارتجاج دائم، استمرت الرياح في العويل طوال الليل والأفرع في طَرقِ الجدران والنوافذ في كل مكان وكأن كل شيء في الطبيعة يرقص رقصة شنيعة. بقوة، بعنف.

من داخل الغابة علت صرخات الأشجار برية ومرعبة حين نفدت الرياح بين القامات السامقة، ارتجَّتْ الغصون وحُمِلَ الهواء بالأوراق والأفرع المتكسرة التي استمرت في الدوران عاليًا مع الرياح يشيعه صياحُ الأشجار الضخمة بالغابة. في بعضٍ من تلك الأيام كانت رقصةُ الأشجار شديدةَ القوَّة، حتى إنه مع طلوع الصباحَ كانت تلك الأشجار تسقط على الأرض هامدة وقد خارت قواها تمامًا.

في إحدى تلك الليالي العاصفة، انبثقت أجنحة الرياح الهائلة يمينًا ويسارًا واندفعت صارخة من داخل الغابة في اتجاه بيت عائلة باتسي، كانت من القوة حد أنها حطمت ذراعي شجرة الأرز القابعة أمام البيت في وسط الحديقة، لطمت الرياح جدران المنزل حتى كادت تقتلعه من أساسه ثم تفتت وتبددت مع طلوع شمس الصباح، بالنهار صارت الغابة مرئية الآن من أغلب نوافذ البيت بعد أن سقطت أطراف شجرة الأرز كجثث هامدة، أعضاء لا حياة فيها على أرض الحديقة، صارت الشجرة مشوهة ومخيفة المنظر، ناقصة بطريقة ما، متألمة بطريقة ما.

كان ابنا أخت صوفيا في زيارة للبيت في ذلك الوقت، وقد سعد الطفلان أشد السعادة بمساعدة البستاني في حمل البقايا الساقطة من شجرة الأرز بعيدًا عن الحديقة. أصدر ديفيد أوامر صارمة بألا يتم قطع الفرعين الساقطين إلى أجزاء، كما أنه أمرَ بألا يتم حرقهما كخشب مدفأة، أصدر أمرًا صارمًا بأن يتم حمل تلك الفروع كاملة ووضعها في بداية الحديقة كسور ارتجالي بين بداية الحديقة ونهاية الغابة. بالطبع لم يفهم الطفلان لِم لكنها تحولت في عينيهما لمغامرة رائعة؛ لأن الفرعين شديدي الضخامة احتاجا إلى يومين كاملين كي تتم إزالتهما بالكامل من على أرض الحديقة ووضعهما كحارسين هناك في بداية ممتلكات العائلة.

راقبت صوفيا كلَّ هذا صامتة، لكن متجهمة وشديدة العصبية.

- الخالة صوفيا أصبحت كبيرة السن وغريبة الأطوار بصراحة.

قالها ستيفن، ابن أختها وهو يراقب خالته عاقدة الذراعين وهي تطل عليهم من إحدى نوافذ البيت الكبير، لكن أليس أخته والتي شعرت أن صمت خالتها كان يحمل أكثر من مجرد السن أو الغرابة قالت:

- لا لا تقل هذا ستيفن، هي فقط تخشى الغابة كثيرًا، ألم تلاحظ أنها لا تخرج معنا حين نذهب للعب هناك أبدًا؟

- لذا علينا بناء هذا السور الكبير من شجرة الأرز إذًا!!

قالها الفتى وهو يحرك رأسه:

- كي لا يتمكن أيُّ شيءٍ، أي شيء على الإطلاق من العبور من الغابة إلى داخل البيت وإخافة الخالة صوفيا، أليس كذلك عم ديفيد؟

لم ينتبه ديفيد إلى كلمات الصغيرين لكنه اعتدل وهو ينفض يديه بعد أن كان منحنيًا لترتيب الأفرع الصغيرة مرتديًا الصديري الأسود والقميص الذي لم يعد بياضه مرئيًّا من التراب الآن. التقط عدة أنفاس متتالية لتصفية صدره ثم قال:

- هيَّا، مهما حدثَ تعرفان أن ليس بوسعنا البقاء هنا بعد حلول الظلام.

ثم نظر في اتجاه الغابة وتابع:

- لأن الرياح بدأت بالفعل تخرج، من قلب الغابة إلى الخارج.. في اتجاه البيت.

- من الخارج في اتجاه البيت.

صاحت بها أليس كالصدى وهي تدفع أخاها:

- هيَّا أيها الأحمق علينا أن نعمل بجد أكبر حالًا حالًا، ألم تسمع ما قاله العم ديفيد؟، سيأتي ما بداخل الغابة ويمسك بنا قبل أن ننتهي.

عمل ديفيد مع الصبي والفتاة بجد بينما راقبتهما صوفيا وهي جالسة في ظل إحدى الأشجار الصغيرة قرب الكوخ على طرف ممتلكاتهم، مع عدة الحياكة الخاصة بها. كانت صامتة لكنها بين الحين والآخر أطلقت بعض النصائح هنا وهناك كمشاركة لهم أو كتشجيع، أخبرت زوجها ألا يُرهِق نفسه كثيرًا حتى لا تعود الحمى، أخبر تاليس أن تحترس كيلا تمزق فستانها، ألا يجرح ستيفن نفسه أو يكسر ظهره أثناء القفز هنا وهناك. كانت تراقب الجميع بقلقِ الأُمِّ لكنها في الوقت ذاته كانت متحمسة لأن ينتهوا، لأن يستكملوا ما يفعلونه.

ما لم تصرح به صوفيا لديفيد أبدًا أن سقوط تلك الأجزاء من شجرة الأرز أعادت كل الذكريات السيئة عن زيارة ساندرسون إلى عقلها مرة أخرى، الفطر السام الخامل الذي بقي طوال الصيف وطوال الربيع السابق كامنًا داخلها تأجج وألقى بذوره في كل مكانٍ فصارت مرعوبة دائمًا، قلقة دائمًا،

وشديدة التوتر. بطريقة ما، ما أصاب شجرة الأرز أيقظ كل شيطان قلِق داخلها حتى إنها سمعت حديثهم سويًّا في عقلها "أرأيتِ؟ لم يكن مجرد خيال ما حدث تلك الليلة"، "أترين الآن كيف تستدعي العاصفة زوجك إلى الغابة؟"ل م يكن خيالاً ما صار في تلك الليلة ولم يكن إرهاقًا، أخبرها عقلها بكل هذا وحاولت تكذيبه لكنها كانت عاجزة.

لم يكن سقوط فرعين من شجرة الأرز حادثًا على هذا القدر من الأهمية لو كانت الأمور طبيعية، لو كان حادث أصاب أي عائلة أخرى، ولم تكن هي حتى لتوليه الأهمية لولا فزع ديفيد في اللحظة الأولى التي سقطت فيها الأفرع، في تلك اللحظة عرفت صوفيا أن ديفيد لم ينسَ طوال الصيف، فقط كان يخفي عنها وكان شديد البراعة في هذا. راقبت وجهه لفترة طويلة، راقبت تعبيراته الغريبة وهو يحمل الأفرع مع الأولاد في إصرار رغم كبر سنه، راقبته يرصها بعناية وهو ينظر بين الحين والآخر إلى الغابة وعرفت، بحدسها عرفت أن تلك الأصوات التي نادته في الليلة التي تكلم فيها أثناء نومه لم تتوقف أبدًا عن النداء.

فقط كان يخفي ما يحدث عنها كي لا يخيفها، وهي كانت غبية لأنها اعتقدت أن كل ذلك الكابوس قد انتهى. راقبت صوفيا الطفلين يساعدان زوجها بحماسٍ، هل كانا متحمسين لأنهما أطفالٌ؟، ولأن جَرَّ فروع الأشجار وبناء سور واللعب في الحديقة كان مغامرة بالنسبة لهما؟، أم هما الآخران سمعا ما سمعه زوجها، وكانا يحاولان إعانته في التصدي له بطريقتهما؟

التفتت ناظرة إلى شجرة الأرز الواقفة خلفها متألمة ونازفة. لم تشعر صوفيا بهذا قبلًا لكن الليالي السابقة جلبت ذلك الشعور القوي لها في كل مرة نهضت في منتصف الليل لتراقب الغابة عبر النافذة المغلقة، في كل مرة ترتجف قلقًا وهي تُحكِم إغلاقَ معطفها حول جسدها ناقلة نظرها من شجرة الأرز إلى الغابة.

كانت الشجرة حارسًا، وكان لها حضورٌ قويٌّ، يكاد يكون أقوى أضعافًا من ذلك الحضور الذي كان في المكتب معهما أثناء زيارة ساندرسون. لم تكن تؤمن بهذا قبلًا لكنها صارت الآن شديدة الإيمان أن سقوط شجرة الأرز كان يعني كارثة ستحل ببيتها. لذا كانت مرعوبة، لذا كانت تراقب الشمس منتظرة المغيب بخوف، منتظرة قدوم الرياح وهي ترتجف قبل أن يمس الهواء جلدها حتى.

- لِم تخشين الرياح بهذه الطريقة؟

سألها ديفيد منذ ليلتين، وأجابت مباشرة دون حتى التفكير في الكلمات التي انطلقت من بين شفتيها:

- لأنني أشعر أنها تجلب معها شيئًا من داخل الغابة ديفيد، إلى داخل البيت، إلى داخل روحنا.

تغيرت نظرته في تلك اللحظة، صار غائبًا في عقله وهو يهمس "نعم".

شكت في أنه كان واعيًا بحضورها حتى وهو ينظر عبر النافذة مجيبًا:

- لهذا أحبها، لأنها تحمل روح الأشجار معها، وتطفو بها عاليًا كالسحب، فوق الغابة، فوق رؤوسنا.

لم يتابع أيٌّ منهما الحديث في تلك الليلة، لكن في مرة أخرى بينما كان في طريقه للخارج، في إحدى رحلاته إلى داخل الغابة وحين عرض عليها أن تصطحبه، تجاهلت العرض وسألته:

- لِمَ تحمل معك الفأس الصغير إلى الغابة ديفيد؟

أجابها ببساطة:

- لقتل اللبلاب السام الذي يستمر في النمو والتعلق حول جذوع الأشجار، كي يتوقف عن امتصاص الحياة منها.

- لكن البستاني يستطيع القيام بهذا، لهذا ندفع له راتبًا!

أخبرها ديفيد أن البستاني لا يعرف كيف يقتل اللبلاب السام، وأنه يكتفي بتوجيه الضربات هنا وهناك وإزالة أجزاء من ذلك الطفيل الكريه ثم إلقاؤه أرضًا، أخبرها أن الأشجار لا تعرف كيف تقاوم هذا الدخيل وحدها وأن البستاني لا يعرف كيف يساعدها كي تقاومه.

- ثم إنني أحب الاعتناء بالأشجار، أحب مساعدتها.

هكذا قالها، ببساطة تامة ورحل. استمرت تلك التغيرات الغريبة البسيطة في شخصيته تتزايد طوال فصل الصيف، تلك التغيرات البسيطة كانت ما أرعب صوفيا، اللبلاب السام، شجرة الأرز وفروعها الساقطة، الرياح. تفاصيل صغيرة تشابكت داخل عقلها لتصنع صورة أكبر وأكثر سوداوية.

كان ديفيد ينسحب من عالمها شيئًا فشيئًا، حتى إنه لم يعد يهتم بإخفاء ما يفكر فيه باتجاه تلك الأشجار. لم يعد يهتم إن كانت خائفة أم لا لأنه لم يعد يعي حتى إن كانت خائفة أم لا. لم يعد عقله حاضرًا طوال الوقت معها مثلما كان سابقًا، كان موزعًا بين ديفيد زوجها الحبيب الذي عرفته طوال عمرها، وبين ديفيد آخر مضى على ذلك الجسر الذي صنعه ساندرسون إلى الجهة الأخرى، وظل عالقًا هناك.

كانت تحب زوجها وإلهها، وزوجها بالقدر ذاته أحبَّها وأحَبَّ الأشجار. لكن حب الأشجار جاء في المقام الأول بالنسبة له في تلك الأيام، ازداد حتى إنها أصبحت تكاد تراه في ملامحه كما تراه في روحه. صارت أفكاره عن الأشجار، حديثه عنها، أولوياته هي أولويات الأشجار، تصرفاته وتفضيلاته للطقس هي تفضيلات الأشجار، ماذا عن مصيره؟!

كان هذا هو السؤال الذي ظلَّ يؤرقها لليالٍ عديدة، إذا صارت حياة ديفيد محورها تلك الأشجار بالغابة، إذا صار كل شيء فيه متعلقًا بها أكثر من تعلقه بزوجته حتى، ماذا عن مصيره؟. حين حاولت الصلاة لدفع تلك الأفكار بعيدًا وجدت أنها تلح عليها أكثر، لم تكن صوفيا تخشى الموت، لأنها علمت أن روحها بعد فناء جسدها ستطفو إلى الجنة لتخلد جوار ربها، كانت تحب ديفيد ولم ترغب في التفكير في رحيله حتى، لكنها وجدت نفسها مرغمة على التفكير، ماذا لو حدث لديفيد شيءٌ ما هناك داخل الغابة؟، هل ستصعد روحه في هدوء وسلام إلى الأعلى لتطل عليها من الجنة؟، أم سيكون لها مصير آخر بين تلك الأشجار.

في البداية لم تكن مؤمنة بكل تلك الأحاديث التي خاض فيها زوجها وحاول دفعها للخوض فيها عن أن للأشجار وعيًا وروحًا، لكن كلما راقبت زوجها تلك الأيام وكيف كان ينسحب شيئًا فشيئًا إلى ذلك العالم الذي لم تكن تعرف عنه شيئًا كانت ترى كم كان محقًا، وأصبحت مؤمنة أن تلك الرياح التي تندفع كل ليلة إلى منزلها لم تكن مجرد رياح تحملها الغابة إلى عتبات بيتها، بل كانت إنذارًا بالحرب، كان ذلك الشيء الذي استيقظ في الغابة ساعة حديث ساندرسون في تلك الليلة بالربيع يقترب شيئًا فشيئًا مع كل دفقة رياح، يأخذ الخطوة تلو الأخرى في طريقه إلى منزلها، وإلى روح زوجها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مضى الصيف وحلَّ الخريف باردًا وضبابيًا على إنجلترا، أصبحت الرياح أكثر قوة والليالي أكثر برودة وتحولت ألوان الأوراق على الأشجار من الأخضر الداكن إلى الأحمر الدموي والبرتقالي. في تلك الليالي حدث ما كانت تخشاه صوفيا، جاء الأمر بهدوء تام وبسلالة دون شجار ودون ترتيبات مسبقة حتى انها تعجبت كيف لم ترَه يحدث. بعد أسبوعين من بداية الخريف في الوقت المحدد لمغادرتهما البيت في رحلتهما السنوية إلى فرنسا، الرحلة التي أصبحت روتينًا دائمًا خلال العشر سنوات الماضية حتى إنهما توقفا عن التفكير فيها حتى وباوا يقومان بها بشكل اعتيادي، رفض ديفيد مغادرة المنزل.

في تلك الليلة عصفت الرياح بقوة في الخارج، أوقدت الخادمة نار المدفأة، أغلقت النوافذ بهدوءٍ وسرعة كعادتها، وضعت المصباح والكبريت على الطاولة وأنزلت الستائر. ملأت براد الشاي بالماء الساخن وتركت الحجرة

بخفة. كان ديفيد جالسًا في مقعده الوثير المعتاد صامتًا، مستغرقًا في التفكير حين نطق فجأة:

- عزيزتي، سيكون من المستحيل عليَّ الذهاب هذه المرة.

في البداية لم تتمكن صوفيا من استيعاب ما يقول وبدا لها أنه فكَّر بصوت عال في نهاية سيل من الأفكار دار داخل رأسه ولم تسمعه، كانت تحرك الماء المغلي في البراد وقد فسرت جملته بأبسط طريقة استطاعت إيجادها، أن ديفيد يعني خروجه الليلة إلى البستان أو إلى الغابة، لذا أجابت ببساطة وهي تشير إلى الخارج:

- بالطبع يستحيل الخروج، ألا ترى الضباب وقد..

لكنها قطعت الجملة فجأة وقد أفاق عقلها لحظيًا، شهقت وهي تنظر لتعبيرات وجهه لتقول بصوت مرتجف:

- أنت تعني الذهاب إلى خارج البلاد.. أليس كذلك؟

- نعم..

كانت صوفيا واقفة، مستندة إلى الطاولة تصب الماء من البراد إلى أحد الأكواب، لم تنتبه حتى فاض الكوب. لدقائق عديدة لم تتمكن من النطق، فاجأتها الجملة نعم لكن بينما حملت الكوب لتفرغهاأدركت أن هذا ليس ما أخافها وليس ما جعلها تقشعر. كانت نبرة ديفيد هي ما أرعبها. تلك النبرة التي سمعتها مرة واحدة من قبل، حين كان يودعها قبل ذهابه في حملة إلى الغابات منذ سنوات مع فريق استكشافي. النبرة التي حملت قرارًا نهائيًّا ووداعًا في الوقت نفسه.

حاولت صوفيا إخفاء يديها التي استمرت في الارتجاف عن ديفيد، كادت تسقط وتجمعت الدموع بعينيها فاستدارت متظاهرة بأنها تحمل الإبريق والأكواب إلى مكانٍ آخر كي تتمكن الخادمة من تنظيفها، بصعوبة تحاملت حتى لا تسقط. كان الضوء شحيحًا في الحجرة نعم لكنها علمت أن الضوء لو كان قويًّا حتى لم يكن ديفيد ليلاحظ ما ألمّ بها، لأن ديفيد لم يعد هنا.

كان بعيدًا تمامًا داخل عقله، بعيد حتى إنها كادت تراه يتلاشى عبر الجسر إلى داخل الغابة السوداء الشيطانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السادس

لم يكن اختيار ذلك البيت في إنجلترا قرار صوفيا منذ البداية؛ كانت تفضل البقاء في بيت صغير أو حتى شقة صغيرة داخل المدينة، حيث بإمكانها أن تستند إلى الجدران عالمة أن ما خلفها هو جدران أخرى وأناسًا آخرين، أسوار متتالية من الحيوات التي تشبه حياتها خلفها، وأمامها إما حيوات أخرى، أو خط الأفق الشاسع. الحرية والأمان. الحرية بالأمام، والأمان خلفها.

كانت الستة أسابيع التي تقضيهم في فرنسا مع ديفيد كل عام بمثابة طوق النجاة لها، الشواطئ المتسعة والشمس الساطعة والأناس الضاحكون جعلوها دائمًا تشعر بأنها ما زالت حية، ما زالت جزءًا من دائرة الحياة السائرة في العالم وما زال بإمكانها سماع أصواتٍ أخرى حولها غير الرياح وفحيح الأشجار. كان ذلك البيت الذي اختاره ديفيد بعيدًا قُربَ الغابة بمثابة قبرٍ لها. لأنها عانت فيه من رهاب الأماكن المغلقة كلما فتحت النافذة لتطل على مشهد الغابة، الغابة والطريق الطويل الفارغ كان محيطًا بها في كل مكان.

شعرت أنها تقف وسط الفضاء وتصرخ، إن سقطت ستطفو فقط إلى فضاء آخر، لن تتمكن من الارتكاز إلى مركز جاذبية يحميها ويوفر لها الأمان، لم يكن لديها مركز جاذبية سوى ديفيد. في بداية معرفتها بزوجها وفي السنوات الأولى لزواجها علمت أن ديفيد من نوع الأشخاص الذي يعشق الطبيعة الخضراء، بل ويستمد منها مزاجه الحسن وصحته. لم تكن تعلم بالطبع في البداية مدى تعلقه بالطبيعة وبالأشجار لكن حين بدأ رحلاته الاسكتشافية إلى داخل الغابات في الهند، تاركًا إياها وحدها لأيام تراقب الأشجار التي غاب بينها ضاربة أخماسًا في أسداس حتى تراه يخرج فتزفر في راحة، تلك الأيام هي ما صنع داخلها رهابًا من الأشجار، رهابًا من كل ذلك اللون الأخضر المحيط بها.

حين عرض ديفيد عليها الإقامة في ذلك البيت الذي اختاره في إنجلترا وافقت لسببٍ واحدٍ، أن البيت كان على طرف الغابة بدلًا من قلبها. كانت تخشى الغابة وتخشى تأثيرها على زوجها لكنها كانت تحب ديفيد أكثر من حبها لذاتها، وبمرور السنوات حين عرفت أن وجوده قرب مساحات شاسعة خضراء من الغابات يحسن صحته ومزاجه لم تعد تكره ذلك المكان، بل على العكس سعت بكل قدرتها لتحوله إلى جنة مألوفة خاصة بهما، كي يتمكن كلاهما من الشعور بالسعادة.

لكن رحلة فرنسا ظلت طوق نجاة، والآن حين أعلن ديفيد عن قراره شعرت كما لو أن العكاز الذي استندت عليه قد انسحب فجأة من يدها، عانت حتى تستمر في الوقوف وترنحت، انقبض قلبها وانتصبت شعيرات ذراعها لا إراديًا،

لأنها بداخلها رأت صف الأشجار بالخارج مبتسمًا، رأت الظلال تمتد من بين تلك الأشجار أسفل السماء السوداء كمخالب لتحط على بيتها، مستنشقة عطر الخوف فيها، شاعرة بالظفر لأن الموعد قد اقترب لتحظى بزوجها.

حاولت ألا تبكي، حاولت ألا تشعر بالغضب، لكنها رغمًا عنها شعرت بالألم. لم يبلغها زوجها بقراره بصرامة لكن كان هذا أسوأ، كان هذا أكثر إرعابًا

- صوفيا أنا آسف.

قالها ديفيد ناظرًا لزوجته دون أن يمد يده لمواساتها:

- لكنني أصبحت أشعر أنني متعبٌ، متعب للغاية حتى إنني لن أتمكن من حمل تلك الرحلة.

أومأت صوفيا بصمت لأنها ظلت عاجزة عن ترتيب أفكارها فتابع ديفيد بالنبرة ذاتها:

- صوفيا لم أعد أستطيع الابتعاد عن هنا، لا أعرف إن كنت أبدو أنانيًّا، لا إعرف إن كنتِ تفهمينني لكن. حياتي هنا صوفيا، وجودي قرب الغابة يشعرني بأنني بخير، حين أبتعد أتألم.

رفعت عينيها لتنظر له بينما يتابع:

- وكأن جذوري هنا، ليست جذور جسدي فقط بل روحي. أستمد سعادتي من رائحة الأشجار ومن صوت حفيفها حولي، حين أبتعد أشعر بأنني أختنق حتى أكاد أسقط محتضرًا، سامحيني صوفيا.

- لم أكن أعلم أن تأثير الأشجار عليك قويٌّ إلى هذه الدرجة.

لم تقلها بنبرة لائمة لكن ديفيد اعتدل قليلًا:

- صوفيا روحي جزءٌ من روح الأشجار حولي، تلك الأوعية الدموية التي تسري في جسدي ناقلة الدم لأعضائي، لا أعرف إن كان بإمكانك تخيُّل هذا لكن تخيلي صوفيا، تخيلي معي لو أن شبكة كاملة من الأوعية هنا..

أشار بيده في الهواء حوله:

- في كل مكان حولي، تحمل إكسير الحياة من الغابة إلى داخل جسدي، تحمل ألمي إلى الخارج هناك ليتبخر عبر الرياح بعيدًا عني. لا أستطيع الابتعاد صوفيا.

أومأت صوفيا بصمت من جديد ثم همست:

- هذه إرادة الرب إذًا، هذه مشيئته.

- صوفيا..

مدَّ ديفيد يده لكنه توقَّف قبل أن يمس يدها:

- صوفيا، أعلم أنني أناني..

لكنها قاطعته ممسكة بيده:

- ديفيد أنت لست أنانيًّا، لم تكن في حياتك أنانيًّا من قبل. أنا أحبك والآن وقد أخبرتني كيف تشعر، سنبقى.

نهضت وقبَّلته ثم عادت لتجلس حين فُتِحَ الباب وأقبلت الخادمة حاملة العشاء وأضاءت المصابيح. فور انصراف الخادمة أخبر ديفيد صوفيا برغبته في أن تذهب هي وتزور أخاها لتبقى معه بضعة أسابيع في بيته، مع أليس وستيفن.

- أنت تحتاجين إلى الخروج من هنا بقدر احتياجي للبقاء هنا.

أخبرَها ديفيد ثم التقطت الكلمات وسط حديث طويل لم تسمع أكثر من نصفه لأنها كانت مشتتة الذهن "لا أظن أنني قادر على الابتعاد عن هنا أبدًا بعد الآن"، كان يتكلم عن الأشجار كما لو أنها معشوقته، عروسه الجديدة. شعرت بقلبها ينقبض بقوة وشعرت بالغيرة لكنها بالطبع لم تخبره بهذا، لم تخبره بأنها كانت تشعر بالغيرة من الأشجار بنفس قدر شعورها بالخوف منها تقريبًا. لكنها حين نظرت له قالت بحزم:

- لن أذهب إلى أي مكان، سأبقى معك هنا.. ألا ترغب في بقائي معك ديفيد؟

- الآن وإلى الأبد صوفيا..

أمسك بيدها بحب وهو يجيب، شعرت بأنامله شديدة البرودة وشديدة الهشاشة، نعم كانت خائفة لكنها لن تتركه هنا مع تلك الأشجار وحده، كانت تعرف، كانت واثقة أنها إذا أخذت ذلك القرار بالذهاب ستعود لتجد أنها فقدت كل شيء، ولم تكن لتحتمل هذا.

- شكرًا لك صوفيا..

- على ماذا؟

- لأنك خالية من الأنانية، لأنك باقية معي دون حتى أن تشعري بما أشعر به تجاه الغابة.

منعت يدها من الارتجاف وهي تهمس:

- لا داعي لشكري كوني أحبك زوجي.

لا داعي لشكري لأنني لا أفعل هذا لدعم حبك للأشجار، بل لأحميك منها. هذا ما لم تقله، لكنها حين عادت للعشاء قالت بطريقة حاولت جعلها عادية:

- ربما في الربيع يمكننا الذهاب.

- ربما في الربيع.

أخبرها أن في الربيع ستكون الأشجار بخير وحدها لأن الجميع يحب البقاء قرب الأشجار في الربيع، لكن الآن في الخريف، تشعر الأشجار بالوحدة، تحتاج إلى وجوده جوارها ليشاركها أفكارها وأحلامها، ليعتني بها ويؤنس وحدتها. لم يخبرها بالتفاصيل لكنها لم تحاول زيادة الحديث لأنها كانت خائفة من أن يخبرها بتفاصيل لا ترغب في سماعها.

حين انتهت الليلة عرفت صوفيا أنها لن تغادر هذا البيت مع ديفيد من جديد، لا باتجاه فرنسا، ولا لبيت أخيها، لا الآن ولا في الربيع. وحين رفعت الستائر عن النافذة كي تنظر إلى الخارج بعد أن غادر ديفيد الحجرة، شعرت بالغابة تبادلها النظر بكراهية وتحدٍّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

استمر الشتاء في الزحف شيء فشيئًا حتى صار الكون حولهما ضبابيًّا صباحًا ومساءً. ومع الشتاء انسحب ديفيد شيئًا فشيئًا إلى داخل الغابة، أصبح يقضي طوال النهار هناك ويعود ليلًا فقط لينام. أخبرَها أنه يعتني بالأشجار، من الحشرات، من زحف النباتات المتعرضة بينها، من الحيوانات، من الألم. أخبرها أنه سعيد وكانت ترى هذا بعينيه دون الحاجة إلى إخبارها أصلًا.

في تلك الأثناء سقطت صوفيا هي الأخرى في حالة من الصمت، حاولت البقاء أغلب الوقت جوار ديفيد طوال فترة بقائه في البيت، حين لاحظت احمرار وجهه وبداية الحم،ى عرضت عليه الدواء لكنه رفضَ تناوُلَه، ثم جاء موعد زيارة الطبيب إلى البيت وجاهدت حتى تعرض زوجها للفحص حتى استسلم في نهاية الأمر لكن الطبيب لم يجد مشكلة به.

- لكنه مشتَّت الذهن كثيرًا سيدي.

أخبرت الطبيب معترضة، محاولة التمسك بآخر قشة ممكنة لها، لكن الطبيب أخبرها أنه لم يجد أي مشكلة عضوية بزوجها، حاولت عرض المشكلة بتفاصيل قليلة حتى لا تخوض في أسرار زوجها وبالوقت ذاته تنبه الطبيب على ما يحدث. لكنه لم يفهم ما تقوله، لم يفهم ما أخبرته به، بالطبع لم يفهم لأنها هي الأخرى كانت تعاني في الفهم. رحلَ الطبيب في النهاية ورحل معه أيُّ أمل في نجدتها مما هي فيه.

لم يكن ديفيد سيء الطباع داخل المنزل، وفعل كل ما كان بوسعه فعله ليشعرها بالراحة في سجنها الذي اختارته بإرادتها، لكنه كان يبتعد عنها شيئًا فشيئًا، وحين تحدث – في الأوقات القليلة التي تبادَلَ معها فيها الحديث – كان حديثه عن الأشجار، كيف كانت ترقص بنعومة أسفل ضوء القمر، كيف كانت روحها تلمع أسفل نجوم الليل في السماء الشاسعة.

كيف كانت الأشجار تخشى الرياح وترتجف حين تهب لكن في الوقت ذاته كانت تنتظرها لأنها تحمل معها المطر، وبالمطر تبدأ الأشجار في الإنشاد معًا بينما تمتد جذورها جميعًا في شبكة واحدة تحت الأرض لتلتقط ما تمدها السماء به. لتغذي روحها وجسدها.

في إحدى تلك الليالي الطويلة وللمرة الأولى منذ أسابيع أبدت صوفيا اعتراضها على خروج ديفيد المستمر في الليل، حاولت إثناءه عن الخروج قائلة:

- ستمرض ديفيد، أصبحَتْ الليالي شديدة البرودة والرطوبة، كما أن هناك بِرَكًا هائلة من المطر قد تخفي أسفل منها حفر في ظلام الليل هذا، لا أرغب

في أن تخرج اليوم..

- لا يمكنني ترك الأشجار وحدها..

- قد تسقط وتموت متجمدًا من البرد.

- لا يمكنني ترك الأشجار وحدها صوفيا، الأشجار بالشرق تشعر بالخوف.

كانت معتادة على سماع مثل هذا التعبير؛ لذا لم تجادل في مشاعر الأشجار لكنها قررت مجاراته بان قالت:

- لا توجد رياح الليلة، ستكون الأشجار بخيرٍ.

- لا صوفيا، الرياح بدأت في الارتفاع من الغرب الآن.. وقريبًا ستأتي، الأشجار تحتاج إليَّ، لا أستطيع تركها.

لم تسأله كيف عرف لأنه تركها وذهب دون استكمال الحديث، منذ زمنٍ توقفت عن سؤاله كيف عرف من أين ستأتي الرياح؟، كيف صار يعرف متى ستمطر وإن كانت ستمطر الليلة أم لا. عاد ديفيد إلى داخل الغابة ولم تنهض هي حتى لتزيح الستائر كي تراه ذاهبًا إلى هناك، لكنها تخيلته – طالما تخيلته – وهو يركض إلى داخل الغابة مبتسمًا، فاتحًا ذراعيه، وكأنه يستقبل حبيبة لم يكن يطيق الابتعاد عنها.

في إحدى تلك الليالي استيقظت صوفيا بمنتصف الليل على صوت زوجها، لم يكن يهمس في نومه كما ظنت في البداية، كان يغني. احتاجت صوفيا إلى دقائق كي تستوعب أنها لم تكن تحلم، كان ديفيد هناك جوار النافذة يغني بتهويدة لم تسمعها قبلًا، بصوت حالم يكاد يكون باكيًا. كان يغني لشجرة الأرز بالأسفل.

بقيت بالفراش تراقبه صامتة، خائفة وكأن السماء قد بدأت تسقط فوق رأسها توًا. رأت شيئًا ما بديفيد تلك الليلة، شيء يزحف حوله، أسود، متفرع، عملاق؛ يزحف بين كلماته وأسفل جلده، يمتد تحت قدمه لينبت أسفل الأرض. تمايل ديفيد وهو يغني بينما بقيت صوفيا بالفراش محدقة بالظلام، بزوجها الذي كانت تخشاه الآن. قبل أن تفتح فمها همس ديفيد:

- كانت تشعر بالألم والوحدة، كانت تتألم صوفيا، لأن إخوتها هناك بعيدًا في الشرق ينادونها أثناء نومها معًا، ينادونها وهي تقف هنا وحيدة غير قادرة على اللحاق بهم.

لم ينظر لها ديفيد لكنه عرف أنها مستيقظة، لم يسمع تساؤلاتها لكنه عرف أنها تسأل. أجاب دون أن يستدير لينظر لها لكنها استطاعت رؤية الابتسامة على وجهه وهو يقول بحزم:

- عودي للنوم صوفيا..

وعاد هو للغناء، لم تتمكن من النوم. رقدت في الفراش أكثر من ساعة ترتجف حتى انتهى زوجها من الغناء وعاد للنوم بلا كلمة واحدة، وفي الصباح تناول الإفطار معها ثم خرج إلى الغابة كالمعتاد. لم تعد صوفيا تعرف ما عليها فعله، اكثرت من الصلاة واكثرت من الدعاء لكنها لم تكن تعرف كيف تكسب تلك المعركة، لم تكن تعرف حتى كيف جاءها اليقين أخيرًا بأنها في معركة.

انتظرت طوال النهار في الغرفة، جوار الشاي حتى برد. رأت الظلال حولها تحل محل ضوء الشمس في البيت الذي صار شديد الهدوء. مع مغيب الشمس بدأ الشعور بالحضور القوي يعود، صارت تألفه الآن لكنها لم تعتد عليه. حاولت تجاهل تلك الحركة خلفها، الحركة الثقيلة لشيء ما يزحف بين الجدران، بين شقوق الأرض، يزحف بثقل على التراب خارج البيت. اخترقت رائحة أوراق الأشجار المبتلة أنفها دون أن تفتح النوافذ. أغمضت عينيها وضمت يديها وهي جالسة، كانوا يطوفون حول بيتها، منتظرين تلك اللحظة التي ينفك فيها الرباط نهائيًا بينها وبين ديفيد.

كانت تعرف هذا الآن لأنها أدركت خائفة أنها هي الأخرى صارت تشعر بما يشعرون به، متى بدأ هذا؟، هل كان في الليلة التي بنى فيها الرسام الجسر بينهم؟، أم في الليلة التي رأت فيها ذلك الشيء في بهو البيت على ضوء المصباح، أم لاحقًا؟!

لم تكن تعلم لكنها شيئًا فشيئًا أدركت أنها هي الأخرى تشعر بتلك الشبكة الضخمة من الشعور التي كوَّنَتْها الأشجار حولهم. لكنها وعلى عكس زوجها لم تستقبل من تلك الشبكة الحب، أو الرغبة. لم تشعر بشيء سوى الغيرة. كانت تلك القامات حولها تغار منها، تغار من حياتها من اللحظة التي وضعت فيها قدمها في هذا المكان منذ أكثر من خمس عشرة سنة مضت. تراكمت تلك الغيرة داخل الأشجار حتى فاضت، كانت تعرف أن تلك الأيام الهادئة الهانئة التي مضت، حين كان زوجها يحبها، حين كانت ترى ابتسامته في الصباح لن تعود.

لم يعد ديفيد يبتسم إلا هناك، بالخارج. عالمًا بأنها ستكون هنا في انتظاره، مضحية ومتحملة، كان ديفيد يعرف كم كانت صوفيا تحبه. والأشجار بالخارج هي الأخرى عرفت كم كانت صوفيا تحبه، لكنها كانت أقوى وأقدم من صوفيا؛ لذا عرفت كيف تأخذه.

صارت صوفيا واثقة ان العد التنازلي لليوم الذي يؤخذ فيه ديفيد منها قد بدأ، رغبتها في الحرب كانت عارمة كما أنها كانت شديدة الإيمان بأن الله معها

وبأن ثقتها بكلمة الرب وبقوة إيمانها ستساعدها، لكنها ظلت عاجزة عن الإمساك بطرف الخيط، بالخطوة الأولى التي سيكون عليها القيام بها.

في خضم تركيزها فُتِحَ الباب، سمعت خطوات زوجها قادمًا إلى الداخل، دون كلام جلسَ أمامها، كان مغطى بالتراب والعرق لكنها صبت له الشاي على أي حالٍ وقدمت له الكعك. لم يتطوع بتقديم أيِّ تفسيرٍ لما كان يفعله داخل الغابة، وهي لم تسأل كالمعتاد لانها أصبحت تعلم أنه لن يجيب ولأنها كانت تعلم أن حديثهما مسموعٌ.

توقفت حركة الظلال حول البيت، شعرت بها دون أن تستدير وتمسكت بتلك الدقائق الآمنة، عالمة أنها لن تطول. تناولت الشاي مع زوجها، أكلا الكعك في صمتٍ، لم يتبادلا حتى النظرات. لكن في نهاية الجلسة أخرج ديفيد من جيبه إحدى الورود الصفراء الصغيرة وقدَّمها لها قائلًا بنبرة غريبة، لمحت فيها شذا من زوجها الذي تعرفه، وكأنه أطل من خلف ذلك الـ "ديفيد الجديد" لثانية:

- قطفتها من أجلك...

تناولتها منه وهي تقول وقد اعترتها رجفة:

- شكرًا عزيزي.

نهض ديفيد، لكنه لم ينضم لها في الأعلى حين صعدت للنوم، سمعت الباب يفتح ثم يغلق وعرفت أنه خرج إلى الغابة من جديد. هذه المرة اتجهت صوفيا إلى النافذة لتراقب زوجها يغيب بين الأشجار بعيدًا، قابضة يدها على الوردة الصفراء الصغيرة التي كانت تكرهها لكنها في الوقت ذاته أدركت أنها سلاحها الوحيد ضد الغابة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

في أحد أيام نوفمبر قررت صوفيا اتباع حدس أتاها ذلك الصباح بشكل مفاجئ، وميض صغير داخل عقلها أضاء للحظة لكنها أمسكت به قبل أن يخبو. قررت الخروج واتباع خطوات ديفيد، قررت الذهاب هي الأخرى إلى الغابة خلفه.

في ذلك النهار لم يعد بوسعها البقاء مكتوفة اليدين في البيت، لم يعد بإمكانها الاستقرار في جلستها والتفكير فيما قد يكون حدث أو ما يمكن أن يحدث. قررت ارتداء ثياب ثقيلة والخروج في إثره. وهكذا فعلت، ارتدت أثقل الثياب لديها، والحذاء الطويل الذي استخدمته في الماضي في تسلُّق التلال معه في فرنسا، وخرجت.

لم يكن بوسعها اتباع خطواته بالضبط لأنه سبقها بساعة كاملة، ولم تكن تلك خطتها على كل حال، كانت فقط في حاجة إلى دخول الغابة، إلى الشعور بأنها في المكان ذاته الذي هو فيه، في استقبال ذات المشاعر التي يستقبلها زوجها بالحياة بين الأشجار. أرادت الإحساس بذلك الكيان الحي الضخم الواعي الذي يزوره زوجها كل يوم وكل ليلة. لم تكن ذاهبة للبحث عنه، كان يكفيها مجرد الشعور بأنها في المكان ذاته معه، حتى ولو كان هذا المكان غابة لا تعرف حتى مدى اتساعها.

ظلت الأشجار ساكنة في ذلك النهار أسفل السماء ذات اللون الأزرق الشاحب، لم تتحرك الأفرع والأغصان المتشعبة المتشابكة والخاوية من الأوراق فوق رأسها. شعرت بكل جذع يمر بها يراقبها. كانت الغابة تعلم أنها قادمة وانتظرتها وراقبَتْها في صمتٍ. فور أن ولجت الغابة شعرت بشيء ما يسقط خلفها، شيء ما يغلق باب الخروج ليحتجزها هناك في الداخل، لم يكن ذلك ترحابًا. كان تحديًا.

سقطت خطوات صوفيا على العشب والطين هادئة، بلا صوت وكأنها سائرة فوق السحب. أمامها امتد اللون الأخضر في كل مكان، من بين الأشجار تسللت أشعة الشمس صانعة بِرَكًا من الضوء على الأرض بين برك الماء. كانت الأشجار متراصة في صفوف كجيش يراقب معًا، وكانت تشعر بهذا، بأنهم معًا، بأنهم في انتظارها. حين اخترقت الغابة كان الطريق أمامها مفتوحًا، منبسطًا وسهلاً، لكنها حين التفتت خلفها وجده مغلقًا ومتشابكًا، مظلمًا تمامًا. سمحت لها الأشجار بالعبور لكنها عرفت أنها لن تسمح لها بالعودة بذات السهولة. لم يكن عليها التفكير في العودة الآن، استمرت في المضي إلى الأمام بين الأشجار، اخترقت أنفها روائحُ عديدة لكنها وللمرة الأولى في حياتها استطاعت التفريق بين تلك الروائح، ليس بنوع الأشجار لكن

بطبيعتها. إحداها يجذب، إحداها يحذر، إحداها يدفعه الفضول.. لكنها لم تستقبل شذًا واحدًا مرحِّبًا، شذا واحدًا محبًّا.

توغلت صوفيا بين الأشجار أكثر، بعيدًا نحو الداخل حتى صارت الأشجار أكثر كثافة وتقاربًا وحتى صار الضوء شحيحًا أكثر. بدأت الأصوات تخفت الآن، بدأ كل شيء يبدو مختلفًا عن العالم الذي اعتادته. حين نظرت إلى السماء وجدت لونها مختلفًا، الأزرق الصافي للظهيرة كان يعمل معه القليل من الأحمر والكثير من الأخضر، ضربات قلبها صارت مسموعة أكثر، أنفاسها كانت ترن في أذنيها حتى تفاجأت كيف كانت غير قادرة على سماعها من قبل. وواصلت السير.

ثم فعلت الشيء الوحيد الذي كان مخالفًا للصوت الذي ألحَّ في عقلها، جلست على أحد الجذوع لتلتقط أنفاسها، متجاهلة الصوت داخلها الذي حثها على الاستمرار. اغتصبت صوفيا شهيقًا طويلاً محمَّلاً بكل أنواع الروائح وبقيت صامتة. جالت بنظرها حولها، لم يعد الطريق الذي أتت منه واضحًا، لم يكن بوسعها رؤية الكوخ أو رؤية الأعشاب المستوية أمامه. كان كل شيء هنا في الداخل بريًّا. وأدركت فجأة أنها لم تعد تسمع أيَّ أصواتٍ أخرى عدا ضربات قلبها، لا صوت طيور، لا أرانب صغيرة تركض، لا أزيز حشرات، لا شيء هناك. كان هذا الجزء من الغابة صامتًا تمامًا كالموت.

جالت بنظرها بين الأشجار ولم تتعرف على أنواعها، هل كانت السنديان؟، الصنوبر؟، لا ليست صنوبر لأن تلك الأشجار حولها وقفت منفردة بلا حياة تنمو أسفل منها، أشجار الصندل ربما؟. لم تكن تعرف لكن دقات قلبها تسارعت بقوة لمرآها، تذكرت ما قاله ساندرسون وما قاله ديفيد قبلًا. بعض الأشجار لا تسمح بالحياة بالنمو حولها، بعض الأشجار تحمل الشيطان في داخلها. لم تشعر بحضور الشيطان لكنها أحست بتلك القوة العارمة للكيانات المنبثقة من الأرض حولها، كانت كل الأشجار هنا، كلها بلا استثناء قد استدارت تحدق بها.

أغمضت صوفيا عينيها بخوفٍ، عاد لها شعور جربته مرة واحدة فقط من قبل، حين كانت طفلة على الشاطئ، حين حاولت السباحة للمرة الأولى لكنها قبل أن تخوض في الماء وقفت وأصابعها تغوص في الرمال الصفراء، انسحب الماء من أسفل قدميها لينهض في شكل موجة هائلة ضخمة أمام عينيها، نمت كجدار بينها وبين السماء. حينها شعرت صوفيا بالرعب، شعرت بأنها معزولة وصغيرة للغاية في مواجهة تلك القوة.

الآن أيضًا شعرت صوفيا بالضآلة، كانت الأشجار حولها شديدة القوة وشديدة الضخامة، ولم تكن وحيدة. أسفل منها شعرت بالجذور المتشعبة تنبض تحت

الأرض، معًا، تستقبل كل شيء وترسل كل شيء معًا، دون أن تفتح عينيها شعرت بالأشجار تتحرك، مقتربة من بعضها البعض بتحدٍّ، موجهة استياءها نحوها لأنها بطريقة ما عرفت أن صوفيا لم تكن تصدق، لم تكن مؤمنة بهم قبلًا. كانت الأشجار قديمة، ولم تتقبل هذه الفكرة بترحاب.

كانت الأشجار قديمة، ترددت تلك الفكرة في ذهنها مرارًا، شعرت بالفكرة دخيلة عليها وكأنها تستقبل وسوسةً قادمةً من الخارج. قديمة، هي هنا منذ آلاف السنين وستبقى هنا لآلاف أخرى، رأت الحياة والموت، رأت التراب ينهض ليصنع الجبال والجبال تتآكل لتصبح طميًا وحصًى. رأت الديدان تنبثق من أجساد تتحلل ورأت الدماء تندفع من رحم نساء في المخاض مع ميلاد أطفال جدد، سرعان ما سيصيرون أجسادًا تأكلها الديدان يومًا ما.

كانت صوفيا، كان عالم البشر كله ضئيلاً للغاية أمام ذلك الكيان الضخم، لأن الوقت الذي يحيا فيه البشر ويموتون، مجرد وقت لينمو فرعٌ آخر في جذع ذات الشجرة التي كانت وستظل حيةً، شاهدة على كل تلك الحيوات، وكل ذلك الموت.

ثم فتحت صوفيا عينيها فجأة، لأنها سمعت صوتًا، انتفضت في مكانها وهي تنظر حولها وللوهلة الأولى رأت جسدًا يمشي، جسدًا يزحف ببطء بين الأشجار على بُعدِ أمتارٍ قليلة للغاية منها، كان الجسد نحيلًا للغاية وللحظة ظنت أن أحد تلك الأشجار كان يسير أمامها. لكنه لم يكن شجرة، أدركت هذا وأثار ذعرها أكثر. كانت تنظر إلى ديفيد!!

عبر ديفيد أمامها، أمامها مباشرة دون أن ينظر لها، لم يشعر بها حتى هنا رغم أنها كانت جالسة جواره مباشرة، فاحت منه رائحة الأشجار، رائحة التربة، مرَّ عاقدًا يديه خلف ظهره ورأسه مشرئب للأعلى، ثم مضى بين الأفرع المتشابكة ليغيب في قلب الغابة، في القلب المظلم النابض أمامها الذي لم تكن لتجرؤ حتى على اجتيازه.

ظلت لفترة تحدِّق في النقطة التي اختفى فيها زوجها توًا، وجسدها بالكامل ينتفض رعبًا. رأت تعبيرات السعادة على وجهه، سعادة لم ترها على وجهه منذ أيامِ عُرسِهما، رأت الراحة، الحب، الشوق واللهفة في اللحظات القليلة التي لمحته فيها قبل أن يمضي. بينما هو لم يرَها أصلًا، لم يلاحظ وجودها ولم يهتم بما يكفي ليلتفت حوله، كان مستغرقًا، جزء من ذلك الكيان الضخم حولها.

أدركت صوفيا في تلك اللحظة كم كانت مخطئة، أدركت أن ذلك المكان هنا، حولها وأسفل قدميها يحمل نوعًا من الحياة لم تكن تعرف أنها موجودة حتى، كانت الغابة حية نعم وواعية. وكانت قوية وجبارة وعلى قدرٍ هائلٍ من

المعرفة. لم تكن الأشجار وحدَها من أو ما يحيا هنا، أدركت صوفيا أنها داخل كون كامل جديد عليها، هنا تحيا كيانات لم ترها ولم تعهدها، كيانات أقدم من البشر، بقِدَم الحياة نفسها.

أعلى منها كانت سماء الظهيرة التي ألقت بنورها على كافة اشكال الحياة في إنجلترا بالخارج وبالعالم كله، لكن هنا بين الأشجار كانت تلك الشمس مختلفة، كانت السماء مختلفة والهواء ذاته لم يكن نفس الهواء بالخارج. لم تكن الغابة والأشجار مرحبة بها، كانت عدائية. لكنها كانت تعرف أن الأمر ليس ذاته مع ديفيد، مع ديفيد كان كل هذا الكيان محبًّا، وديعًا وجذابًا. كان قويًّا بما يكفي ليأخذ زوجها منها، وقويًّا بما يكفي لكي يحتفظ به هنا بين تلك الأفرع المتشابكة وفوق تلك الأرض النابضة.

ديفيد كان جزءًا من كل هذا، ينبض بالحياة حين تلمس قدميه تلك الأرض تمامًا مثل تلك الأشجار التي تحمل لها النبضات تحت الأرض الطعام والماء، يميل متنفسًا الهمسات التي يتناقلها النسيم بين الجذع والآخر وبين الورقة والورقة التي تليها، كانت تلك الهمسات تخترق مسام ديفيد، كانت تلك القشعريرة التي سرت في بدنها بالنسبة إلى ديفيد مداعبة لطيفة.

نهضت صوفيا وقد قررت العودة إلى البيت، تراجعت من ذات الطريق الذي جاءت منه، متفاجئة في البداية حين افسحت لها الأشجار الطريق، متفاجئة لدقائق فقط كيف وجدت طريقتها بتلك السهولة رغم أنها تجولت على غير هدى في الداخل لفترة. ثم جاء الإدراك ومعه جاء الرعب.

الغابة أرادت منها الرحيل، الأشجار أفسحت لها الطريق لأنها أرادت منها الخروج، لم تكن الغابة ترغب فيها أو في وجودها بين طياتها. ثم جاء الرعب الأكبر حين أدركت الصورة كاملة. كانت غيرة الغابة قوية وعظيمة لكنها لم تكن كغيرة البشر أو حتى غيرة الحيوان الأليف. كانت غيرة الغابة آتية مع رغبة قوية في التملك. طوال تلك السنوات كانت صوفيا خائفة من الغابة لأنها كانت تخشى أن تجذب الغابة ديفيد لتدمجه في كيانها، لتقتله، لتسحب حياته بينها. لكنها أدركت الآن أن الغابة رغبت في ديفيد لأنها تحبه، لأنها تعشق قربه منها واهتمامه بها.

كانت الغابة راغبة في حياة ديفيد داخلها، لا قتله.. كانت تريده حيًّا.

صوفيا هي من كانت العائق، صوفيا هي من كرهتها الغابة، وهي من كانت حائل بينها وبين الرجل الذي أحبته الأشجار كثيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في تلك الليلة على المائدة بينما جلست لتناول الشاي مع زوجها الذي عاد من الخارج في روتينه المعتاد لتناول الشاي فقط وبعض الطعام قبل أن يذهب قررت إخباره بالحقيقة، لم تخبره أنها قضت النهار كله بعد عودتها تتجول في البيت خائفة وباكية لكنها أعلنت بهدوء:

- هذا الصباح، ذهبت إلى الغابة خلفك بعد أن رحلت أنت.. دخلت إلى الغابة ورأيتك هناك.

رفع ديفيد عينيه عن كوب الشاي لينظر لها، لم تكن نظرة دهشة أو نظرة عتاب، في الواقع لم تكن نظرته تحمل أيَّ نوعٍ من التعبيرات على الإطلاق بل أجاب بخواء:

- أليست رائعة؟

هل توقعت رد الفعل هذا؟، لا. هل كانت متفاجئة؟، في الواقع لا. ابتلعت لعابها وهي تجيب:

- نعم، و.. كبيرة ومخيفة أيضًا.

كانت تتوسل في داخلها لتسمع مواساته أو طمأنته، لكنها تظاهرت بالتماسك وهي ترتشف القليل من الشاي، ظلَّ ديفيد على صمته للحظات قبل أن يقول:

- نعم.

لم يقل سواها، ولم تعد صوفيا لمحاولتها اجتذاب أي حديث منه بعدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت الأيام التالية بطيئة أكثر مما يجب، لم يعد هناك حديث بينها وبين زوجها ولو حتى كمجاملة، لم يعد يحاول مواساتها أو تعويضها عن بقائها طوال تلك الفترة في المنزل وحدها. بعد عدة أيام من رحلتها إلى الغابة أصبحت تخلد للنوم مبكرًا، أصبحت تترك له الطعام وتوصي الخادمة بإشعال النيران في المدفأة كل ليلة، تترك الأبواب مفتوحة حتى يتمكن من الدخول والخروج. لكنها لم تعد تنتظره، ولم يؤنبها ديفيد ولو لمرة واحدة.

تخلت صوفيا عن مقاومتها، بعد تلك الرحلة إلى الغابة تخلت عن الصراع ضد الأشجار وضد قوتها لأنها علمت أن لا طاقة لها بها. كانت تحاول مجابهة قوة أكبر وأقدم منها، وزوجها لم يعد يحاول مساعدتها، لم يعد يعترف بوجودها حتى.

في الأيام القليلة المتفاوتة التي صدف فيها مقابلته لها على وجبه الطعام قبل أن تخلد إلى النوم، بدا على ديفيد أنه لم يعد يطيق المنزل ولا البقاء فيه.

كانت الجدران تقيده وتخنقه، لم يعد يحب شعور الأرض المستوية أسفل قدميه ولا السقف فوق رأسه لأنه يحجب عنه السماء العارية. صارت رائحته أغرب عليها، صار غريبًا تمامًا عنها. حتى حين يعود بعد ليال طويلة في الخارج ليستلقي جوارها في الفراش، لم تعد تفوح منه تلك الرائحة الدافئة التي كانت تشعرها بالأمان.

أدركت أن ديفيد ذهب بلا عودة، أدركت أن عليها التوقف عن المحاولة لكنها لم تتخل عن صلواتها. فقط أبدلتها، صارت الآن تصلي كي لا تكون نهايتها مؤلمة، لأنها علمت أن تلك النهاية ستأتي قريبًا. فقط كانت تتمنى الخلاص لروحها، ألا تبقى عالقة هنا على الأرض، ألا تعلق داخل تلك الغابة وألا تتألم.

كان ديفيد يراقبها، بالطريقة نفسها التي راقبتها بها الأشجار حين كانت في الغابة، منتظرًا، وهي كانت تعرف ماذا ينتظر. لم يعد ديفيد يطيق ذرعًا بها، لم يعد ينظر لها إلا منتظرًا أن تأخذها الغابة، منتظرًا حريته الخاصة، لأن عدا عن تلك النظرات لم يكن يراها حتى، نظرته تلك كانت بمثابة حكم الإعدام عليها، كانت تموت مرارًا في انتظار حكم الإعدام النهائي.

ولم يكن لديها ملاذ تهرب إليه سوى البكاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

كانت تحلم، تحلم باستمرار بالحلم ذاته.

في الحلم وقفت صوفيا على صخرة وسط البحر، وسط أميال وأميال من الأمواج التي استمرت في العلو شيئًا فشيئًا، في أحد الأحلام لمست الأمواج أصابع قدميها، ثم كاحلها، غاصت ركبتيها في الماء وهي ثابتة كالتمثال على الصخرة، غير قادرة على الفرار أو الصراخ.

ثم وصل الماء لعنقها، ثم غطى فمها ورأسها، وفي عمق الماء رأته، الشيطان السابح في الأسفل داخل الدُكنة، متمايل مع الأعشاب الطويلة التي كانت تمتد لتجذبها إلى الأسفل، الأشجار العظيمة السابحة تحت الماء، والتي كانت تصرخ بعويل الرياح.

استيقظت صارخة من أحلام كثيرة وباكية من أحلام أخرى، الآن كان دور زوجها قد حان ليهدهدها، ليمسد على رأسها ويخبرها أثناء هلوستها أن تلك مجرد أحلام، وبأن الوقت باكرٌ والعالم كله نائم.

- عودي للنوم صوفيا، عودي للنوم فالعالم كله ينام الآن.

- لكن الرياح ديفيد، الرياح تصرخ.

- لا تنصتي إذًا..

- لكنني سمعتها تنادي، رأيت مئات الأعين تراقبنا من النافذة.

- لم يكن ذلك سوى ضوء القمر صوفيا، ضوء القمر العابر من بين الأوراق، نامي أرجوكِ.

وكانت صوفيا تعود للنوم.

مرت أيام الشتاء داخل بيت عائلة باتسي شديدة البطء والثِقل، وشيء فشئ بدأت صوفيا تذوي. في البداية راقبت بوعي كامل عملية تحللها، صار عقلها يغيب مع كل عاصفة تأتي لتضرب المنزل ليلًا، لم تعد قادرة على التركيز، كانت تترنح في مشيها ثم صارت تسقط أرضًا إذا خرجت من غرفتها. بدأ عقلها يغيب في هلاوس تسمع فيها صرخات، تصيح أصوات عديدة في أذنها أن نامي ولا تستيقظي.

بدأ جسدها يضعف أيضًا، لم تعد قادرة على النهوض من الفراش إلا لاستخدام المرحاض، حتى الطعام صارت الخادمة تجلبه لها ثم وبعد أسابيع من الرقاد لم تعد الخادمة تأتي، عرفت صوفيا أن ديفيد صرفها لكنها لم تكن تعرف لماذا. صار نظرها أضعف حتى باتت قراءة كتابها المقدس صعبة.

كانت تعاني لتضع الكلمات معًا، وتعاني لتتذكر معاني الجمل ثم تعاني حتى تبكي لتنطق بها. حين عاد ديفيد من الخارج أخبرها للمرة الأخيرة أن تذهب لتبقى مع أخيها، لتتحسن قليلًا. رفعت عينيها لتقابل عينيه محاولة إيجاد الصدق فيهما، بحثت في عينيه كثيرًا عن أي بادرة، أي لمحة لديفيد الخاص بها، لزوجها، لحبيبها. لكنه لم يكن هناك، لم يكن عرضه صادقًا ولم يكن يهتم لصحتها. كان راغبًا في الفرار من البيت فقط، عالِمًا بأنه مُلزَمٌ بالبقاء جوارها طوال وجودها هنا.

كانت تعرف الآن أنها هي الهدف وليس هو، وأن شجرة الأرز بالأسفل تحميه من بطش الغابة. كانت تعرف أن مسامير نعشها هي ما يدق واحدًا تلو الآخر.

لكنها وإن عجزت عن المقاومة، فقد كانت عاجزة عن الاستسلام لتلاشي حبه من داخلها، لذا أجابت بالإجابة الوحيدة المستطاعة.

- لا..

وبقيت صوفيا.

في البداية كانت واعية بتضحيتها من أجله، وبعقلها الذي يفنى، وبروحها التي تتألم. في البداية وبتوالي أيام الشتاء كانت صوفيا تتجرع كل ذلك الألم وتتحمله من أجل ديفيد، رغم أن ديفيد لم يكن هنا. ثم بدأ وعيها نفسه يغيب، شعرت به ينسحب من داخلها عبر النافذة وعبر الجدران وشقوق المنزل ليتلاشى.

لم تعد الكوابيس تأتي، لم تعد ترى الأشجار ولا الشيطان السابح أسفل الماء ولم تعد تغرق. صار وعيها واهيًا حتى إنها في الساعات القلائل التي كانت مستيقظة فيها كانت غير قادرة على البكاء حتى، أو على التوسل.

حين أغمضت عينيها رأت الشيطان، لم يكن يسبح أسفل ماء أو بين أشجار لكنه كان جالسًا، جالسًا وسط لا شيء. مساحة ضخمة من اللاشيء. رأت عينيه ورأت وجهه يراقبها وعجزت عن الصراخ. عزاؤها الوحيد أنها لم تعد تتألم، لم يعد جسدها يؤلم بل بدأت تفقد الشعور به من الأساس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في تلك الليلة الأخيرة استيقظت صوفيا للمرة الأولى منذ أسابيع كاملة الوعي بمنتصف الليل، في البداية ظنت أنها داخل حلم آخر، لكنها انتبهت إلى أن صوت الرياح المرعب الآتي من الخارج بقوة هو ما أيقظها. كانت الرياح تلطم النوافذ وكأنها قبضات تضرب جسدها ذاته. جلست في الفراش ترتجف ناظرة إلى النافذة قبل أن تشعر بذراعي ديفيد تطوقانها للمرة الأولى منذ ما بدا لها كسنوات.

- لم لا تنامين حبيبتي؟

همس بها ديفيد، تجمعت الدموع داخلها لكنها كانت أضعف من أن تتركها تنحدر. لم تُجِب، اهتزت النوافذ بقوة أكبر وسمعت الصرخات القادمة من الداخل، من قلب الغابة، العطر الذي حمله الهواء إلى داخل الحجرة كان كثيفًا، كان رطبًا كالأغصان المبتلة وسميك كرائحة الجذوع.

- الرياح، الرياح تصرخ بقوة الليلة ديفيد.

- لا تستمعي لها صوفيا، عزيزتي. فقط لا تستمعي لها.

ارتج المنزل بقوة وارتجفت صوفيا بالفراش، أمسكت بأصابع زوجها المحيطة بها وأغمضت عينيها تاركة الدموع تنسال على وجهها:

- لكنها تصرخ باسمي ديفيد، تصرخ في أن أتبعها إلى الداخل.

مسد زوجها شعرها ثم قبلها على رأسها قبلة واحدة أخيرة وهمس:

- إذًا أتبعيها صوفيا، سيرى معها ولا تقاوميها.

بكت صوفيا، بكت نفسها وبكت ديفيد وهي تتذكر عبارة وحيدة من كتابها المقدس الذي يقبع الآن جوار فراشها. قاوم الشيطان وسيفر الشيطان هاربًا. سمعت صوتها الخاص يهمس بالجملة لكنها لم تسمع صوت ديفيد يرد، ربما لأن صوتها الضعيف قد بددته الرياح وربما قد سمع ولم يرغب في الرد.

حلَّ ديفيد ذراعيه من حول كتفيها وانزلق عائدًا إلى عالم أحلامه وحاولت صوفيا أن تحذو حذوه، لكن عويل الرياح استمر في الصعود، صرخت الرياح حولها بألف صوت، هدرت كألف محيط، وطرقت الجدران والنوافذ بقبضة غاشمة كألف شيطان.

ثم سقطت صوفيا داخل نفق من السواد، لم تعد ترى ما حولها لكن الصوت ظل يعلو، داخل عقلها رأت الأشجار أطول قامة حتى إن قممها اخترقت السموات، انفلتت الأغصان والفروع في دوامة حملت العالم كله بينها، اخترقت رائحة الأخضر كل شيء، ظنت أنها غابت عن العالم لدقائق لكنها فتحت عينيها مع بزوغ أولى خيوط النهار، من الخارج استمر العويل والنواح الآتي من الغابة، فجلست.

لم يكن ديفيد جوارها، لمست أصابعها الحافية الأرض الباردة وانزلقت خصلات شعرها في كل مكان على كتفيها وصدرها، تعانقها بدلًا من اليدين التي لن تشعر بهما على جسدها من جديدٍ. أمام النافذة وقفت صوفيا ناظرة إلى الأسفل، إلى حديقتها وإلى شجرة الأرز التي تخلت جذورها عن التشبث بطين الأرض اخيرًا، فرقدت كمارد سقط من السماء فوق الطين.

وجوارها رقد الجسد الضئيل الخاوي من الحياة، مفتوح العينين، الجسد الذي كان يومًا ما وعاء لزوجها. صرخت صوفيا، صرخت حتى ذاب صوتها داخل الرياح التي انفجرت من داخل الغابة العملاقة حاملة صوت زوجها بين هدير الأشجار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الفصل الأول
الفصل الثاني
الفصل الثالث
الفصل الرابع
الفصل الخامس
الفصل السادس
الفصل السابع
الفصل الثامن
الفصل التاسع